الدكتور أمجد الطرابلسي
استاذ بكلية الآداب في الجامعة السورية

دروس ومحاضرات بكلية الآداب

٢

نظرة تاريخية
في
حركة التأليف عند العرب
في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا

الجزء الأول
اللغة والادب

مطبعة الجامعة السورية

دمشق ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م

الدكتور أمجد الطرابلسي
استاذ بكلية الآداب في الجامعة السورية

دروس ومحاضرات بكلية الآداب

٢

نظرة تاريخية
في
حركة التأليف عند العرب

في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا

الجزء الأول

اللغة والادب

مطبعة الجامعة السورية

١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م

الطبعة الثانية

بين يدي هذا الكتاب

هذه مجموعة دروس في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا حتى فجر النهضة الحديثة . والموضوع من المنهاج المقرر لشهادة الثقافة العامة، أي شهادة السنة الاولى التحضيرية بكلية الآداب . وقد سبق لي أن ألقيت على طلاب الشهادة المذكورة دروساً في هذا الموضوع فأخذ الطلاب عني بعض الأمالي والخلاصات وتوزعوها فيما بينهم . وقد اضطرني اليوم الى اعادة النظر في هذه الدروس وطبعها أني رأيت هذه الأمالي التي يتناقلها الطلاب مشحونة بالأغلاط مما ينقص الفائدة المرجوة من مثل هذه الدراسة .

واني لأرجو بعد اليوم وقد أصبح هذا الكتاب في متناول الأيدي — أن ينتفع طلاب شهادة الثقافة العامة انتفاعاً كاملا بدراسة هذا الموضوع الذي هو دعامة أساسية في ثقافتهم الأدبية . والله الموفق .

دمشق : ٢٦ شهر ربيع الأول ١٣٧٤ هـ

٢١ تشرين الأول ١٩٥٤ م

أمجد الطرابلسي

المقدمة

لهذا البحث في منهاج السنة الأولى بكلية الآداب هدف مزدوج . فهو يرمي إلى أن يكوّن لدى الطلاب فكرة موجزة وواضحة عن بعض نواحي النشاط الفكري عند العرب حتى فجر النهضة الحديثة ؛ كما يرمي أيضاً إلى دلالة الطالب الجامعي على المراجع والمصادر الهامة التي هو بحاجة اليها لاستكمال أدوات بحثه .

أما الهدف الأول فلا حاجة إلى الإلحاح على بيان فائدته ؛ إذ أن هذا البحث من أهم نواحي تاريخ العرب الفكري ، ذلك التاريخ الذي لابدّ للطالب الجامعي من الاطّلاع عليه اطّلاعاً صحيحاً ليبقى مستقبلنا العلمي متّصلا بماضينا أوثق اتصال.

وأما معرفة المصادر والمراجع فأمر لايستغني عنه طالب العلم ، وآلة لايمكن له بدونها أن يُسهم حقيقةً في تقدم المعارف الإنسانية .

وطالب العلم مع حاجته إلى معرفة المراجع والمصادر ، يحتاج أيضاً إلى **معرفة أسلوب الرجوع اليها والاستفادة منها** ؛ إذ أنّ معرفة هذه الكتب الأساسية شيء ومعرفة طرق الاستفادة منها شيء آخر . وهذا مالايمكن اكتسابه إلا بمعرفة مضمون هذه الكتب ولو إجمالاً ؛ كما أنه أمر لابدّ فيه من الخبرة والممارسة الطويلة . وربّما أنفق الناشيء المبتديء من وقته في جمع عناصر بحثه أو في مراجعة مسألة من المسائل أضعاف ماينفقه في ذلك الباحث الخبير المتمرّس .

ثم إنه لابدّ لطالب العلم أخيراً من أن تكون خبرته بالمصادر والمراجع **عميقة وشخصية** ، وذلك كي يستطيع الإفادةَ منها بنفسه وبدون كبير مشقة . ولا يعدّ الباحث متمكّناً من أسلوب العمل إلاّ إذا كان في وسعه ان يعثر بنفسه على المصادر التي تقتضيه طبيعة بحثه الرجوع إليها .

لقد جرت العادة أن توصف البحوث العلمية القيمة بانها **مبتكرة** ، وليس معنى ذلك أن صاحبها يجيء من عنده بشكل شيء . بل ان البحث العلمي المبتكر هو في الحقيقة البحث المستوعب الذي لايتجاهل صاحبه شيئاً مما كتب قبله في موضوعه . وبغير هذا الاستيعاب العلمي الضروري لايمكن للبحث الجديد أن يسجل في مضمار العلم خطوة التقدم التي لابد منها ليكون مبتكراً . ولهذا ربّما صحّ أن يفضّل ، في منطق البحث العلمي ، الباحث الدؤوب الذي يعرف كيف يهتدي إلى مصادره بنفسه وكيف يستفيد منها بشكل منهجي — على الباحث الذي يعي في صدره علوماً كثيرة ولكنه يخطىء المنهج الصحيح كلما تصدّى للدراسة أو البحث .

❀ ❀ ❀

هذه — بإيجاز — الدوافع والاعتبارات التي اقتضت تسجيل هذا البحث في منهاج السنة الأولى بكلية الآداب وكانت سبباً في إنشاء هذه الدروس وإلقائها على طلبة السنة المشار إليها .

وقد حرصنا في هذه الدروس على بلوغ الهدف الذي تحدثنا عنه آنفاً . فجرّدناها من طابعها النظري ماوسعنا ذلك ، متوخين منها غالباً الفائدة العملية التطبيقية .

ونعتقد أن هذه الدروس لن تؤتي أكلها المرجوّ إلاّ إذا اعتاد الطلاب الرجوع إلى هذه الكتب بأنفسهم باحثين أو قارئين متصفحين . ولهذا ننصح الطلاب أن يبذلوا مافي وسعهم حتى يتعرفوا إلى هذه الكتب شخصيّاً في المكتبات العامة ولا سيما في مكتبة الجامعة .

❀ ❀ ❀

الباب الأول

التأليف في اللغة

تمهيد :

إن جمع اللغة وتثبيتها في الرسائل الجزئية المتفرقة أو في المعاجم الجامعة ذات الطرق المتنوعة يهمنا هنا اكثر من سواه من أنواع التصانيف اللغوية الاخرى . ذلك لان المعاجم هي المرجع الذي لا غنى عنه في كل بحث مهما كان نوعه ؛ بل هي المرجع الذي يستوي في الحاجة اليه الناشىء المتعلم والباحث المنقب . ولا ريب في أن تنوع المعاجم لدى الامة ، وتجددها من حين إلى آخر ، وذيوع استعمالها بين الافراد ، دليل على حيوية هذه الامة وحيوية لغتها .

ان المعاجم هي مراجع قبل كل شيء ، يرجع إليها عند الحاجة ، وليست كتب قراءة أو تسلية . كما أنه لا حاجة بأحد إلى استظهار ألفاظ المعجم ، وليس الذي يحفظ المعجم سوى نسخة معجم جديدة . وليس يغني الامة كثيراً أن تزداد فيها نسخ المعاجم نسخةً او نسختين . ولكن المعاجم كثيراً ما تكون مصادر للبحث ومستقى لمادة ولاسيما في تاريخ اللغة وفقهها . ومعاجمنا المسهبة مثل لسان العرب وتاج العروس ، التي هي أشبه بالموسوعات منها بالمعاجم ، أبين دليل على ذلك .

وربما صلحت المعاجم أن تكون أحياناً كتباً للقراءة والتسلية ، اذا

كان المطالع مغرماً بهذا النوع من القراءة الجدية ، على شريطة ألا تقتصر المطالعة على هذا النوع من الكتب ، وأن تكون القراءة للتسلية والكشف بالمصادفة لا للحفظ والاستظهار . وقد عرف عن كثير من الادباء ولوعهم بقراءة المعاجم ورغبتهم في الاستسلام الى مفاجآتها الطريفة التي تكشف لهم عن كثير من أساليب اللغة واسرارها . كيف لا ولغة الامة هي منطقها وفكرها مجموعين بين دفتي كتاب واحد ؟

ومعاجم اللغة ـ اذا استثنينا دوائر المعارف أو الموسوعات ـ على نوعين :

آ ـ **معاجم الالفاظ** : وهي تفيدنا مبدئياً في الكشف عن معنى لفظة من الألفاظ .

ب ـ **معاجم المعاني** : وهي تفيدنا مبدئياً في ايجاد لفظ لمعنى من المعاني يدور بخلدنا ولا ندري كيف نعبر عنه بدقة .

وسنخص كل نوع من هذين النوعين بفصل خاص .

❀ ❀ ❀

الفصل الاول

معاجم الالفاظ

قلنا ان معاجم الالفاظ تفيد في الكشف عن لفظ من الالفاظ نجهل معناه كل الجهل ، او نعرفه بشكل غامض ونود لو نعرفه بشكل دقيق .

ولكن لمعاجم الالفاظ في اللغة العربية - ولاسيما الكبيرة منها - فوائد اخرى لاسبيل لاحصائها هنا ، يعرفها المتمرس بهذه المعاجم حق المعرفة : منها ضبط الالفاظ ، والاطلاع على تطور معاني المفردات من عصر الى آخر ، والكشف عن اعلام الأشخاص والقبائل والأماكن وضبطها ، وتحقيق كثير من الشواهد والروايات المتضاربة .

لقد جرى جمع ألفاظ اللغة العربية على مراحل ثلاث ، وان شئت فقل على أشكال ثلاثة . لان هذه الاشكال هي في الحقيقة متداخلة متعاصرة وليست مراحل متعاقبة تحدها الفواصل الزمنية الثابتة :

المرحلة الاولى — هي مرحلة تدوين ألفاظ اللغة وتفسيرها بدون

ترتيب ،وقدجرى هذا الجمع بفضل نشاط الرواة والعلماء منذ أواخر القرن الهجري الأول وخلال القرن الثاني ،أي في العصر الذي كان يجري فيه جمع الحديث والادب . وكان السماع عن الاعراب والاتصال المباشر بهم في صحرائهم او حين قدومهم الى الامصار احد المصادر الاساسية التي اعتمدها الرواة في جمع اللغة . أما مصادرهم الاساسية الاخرى التي استنبطوا منها مفردات اللغة فهي القرآن والحديث والادب القديم بشعره وأخباره وأمثاله .

وكانت كل طبقة من الرواة تتلقف ماجمعته سابقتها من مفردات اللغة وتزيد اليه بجهودها الخاصة ثروة جديدة. ثم اخذ بعض الرواة يدونون هذا التراث اللغوي في رسائل متفرقة تمتاز بغناها كما تمتاز بطابعها الابتدائي العفوي البعيد عن التنسيق والترتيب .

ولعل كتاب «النوادر في اللغة» لابي زيد الانصاري[1] خيرما بين ايدينا من كتب لغوية تمثل هذه المرحلة ، اذ نرى المؤلف يورد فيه النصوص الشعرية والنثرية الملأى بالمفردات الغريبة النادرة فيشرحها ويعلق عليها بعض التعليقات اللغوية من غير ترتيب في ايراد النصوص او ربط بين معاني الالفاظ .

---

(١) أبو زيد الأنصاري : سعيد بن أوس ، من أكابر أئمة اللغة والرواية في البصرة ، ومن أوثقهم ، ولد سنة ١١٩ هـ وتوفي سنة ٢١٥ هـ . واياه يعني سيبويه في قوله « حدثني الثقة » . له كتب طبع طائفة منها ، أشهرها (النوادر في اللغة)طبع في بيروت في المطبعة الكاثوليكية بتحقيق سعيد الخوري الشرتوني عام ١٨٩٤ م .

وهذه أمثلة من هذا الكتاب تبين طريقة مؤلفه فيه .

« ويقال : ثوب : مهلهل إذا أرقّ نساجه فباعد بين خيوطه ورأيت الرجلين يُهنهمان هنهمةً إذا تكلما بكلام يُسرانه من غيرهما لا يفهمه غيرهما . ويقال : في صدر فلان علي دَغل أي شرّ . والداغل أيضاً القوم يريدون خيانة الانسان او عيبه ... ويقال : اعتنفت البلد اعتنافاً اذا لم يوافقك واستوخمته . ويقال عرفتني لا نسأها الله ، مهموز ، أي لا أطال الله أجلها . ويقال في مَثل : سقط العشاء به على سرحان[1] إذا طلب حاجة فوقع منها على داهية . ويقال : لم أجد عنده أبعد أي طائلا ويقال : رجل أَبِل . وقد أبلَ بالمال يأبَلُ أبلاً إذا لم يرض للمال بمرتع سَوْءٍ ولا مشرب سوء وأحسنَ رِعيتها إبلاً كانت أوشاءً . ويقال في مثل : لا يعدم عائشٌ وُصلات : يقال هذا للرجل يُرْمِلُ[2] من المال والزاد فيلقى الرجل فينال منه الشيءَ بعد الشيء ، ثم الآخر حتى يبلغ أهله. ويقال في مثل : نعيم كلبٍ في بؤس أهله — وبِبُؤس أهله وبؤس أهله لغتان — ، يقال هذا للانسان اذا أكل من مال غيره ؛ وأصله أن كلباً سمن وأهزل الناس فأكل الجيف حتى سمن ونعم وأهله بائسون . وقالوا : الهُبعُ والرُبع واحد في السنّ ، ولكنه دعي هُبعاً لكثرة

---

(١) السرحان : الذئب .

(٢) أرمَل الرجل : افتقر .

حنينه لا يكاد يسكت . قال أبو حاتم وقال الأصمعي عن جبر بن حبيب أخي امرأة العجاج قال: الرُّبَع الذي تنتج في الربيع، والهُبَعُ الذي تنتج في الصيف فهو ضعيف فإذا مشى مع أمه لم يطق المشي فأبطرته ذرعاً[1] فهبع أي استعان بعنقه . ويقال في مثل: ما أنت الا كابنة الجبل، مهما يُقل تَقُل وذلك إذا تكلَّمت فردَّ عليك شيءٌ مثل كلامك وهو الصدى الذي إذا قلت شيئاً أجابك مثله . ويقال أوزمت لله علي يميناً لا أفعل ذلك ايزاماً ، أي جعلت لله عليَّ يميناً . ويقال معه زأرة من الناس ، أي جماعة، وهي الإبل والغنم العظيمة الضخمة إلخ ... »[2] .

إن هذا النص يوضح طريقة أبي زيد الأنصاري في نوادره كل التوضيح فالمؤلف يسرد المفردات الغريبة والأمثال النادرة بلا ترتيب ويشرحها شرحاً ، على ايجازه ، كافياً . ومن السهل جداً أن نتبين انه لا رابطة تربط بين هذه الامثال أو هذه المفردات اللهم الا الغرابة والندرة . ويخيل إلينا أن هذه الرسالة هي أصدق صورة لما كان عليه جمع اللغة في المرحلة الأولى .

المرحلة الثانية — وهي مرحلة تدوين ألفاظ اللغة مُرتبةً في رسائل متفرقة صغيرة محدودة الموضوع مبنية على معنى من المعاني أو على حرف

---

(١) أبطرته ذرعاً : حملته مالا يطيق . راجع : اللسان ، مادة (هبع) .

(٢) انظر : النوادر ، ص ٢٤٦ — ٢٤٨ .

من الحروف. وكلّ هذه الرسائل الصغيرة، سواء ماوصل منها وما فقد، إنما ذابت في المعاجم الجامعة التي ألفت فيما بعد .

وقد وصلنا كثير من الرسائل التي تمثل هذه المرحلة ؛ فلأبي زيد الانصاري صاحب كتاب النوادر الذي سبقت الإشارة إليه في هذا الفصل عدد من الرسائل اللغوية التي تمثل هذا الشكل الثاني من اشكال جمع اللغة مثل : كتاب المطر و كتاب اللبأ واللبن[١] كما ان لمعاصره الأصمعي[٢] رسائل اخرى كثيرة من هذا النوع مثل : كتاب الابل و كتاب الخيل و كتاب الشاء و كتاب اسماء الوحوش وصفاتها و كتاب خلق الانسان و كتاب النخل والكرم و كتاب النبات والشجر[٣] . ومن هذا النوع أيضاً

(١) كتاب (المطر) وكتاب (اللبأ واللبن) لأبي زيد نشرا في بيروت عام ١٨٠٩ م وذلك في مجموعة من الرسائل اللغوية القيمة عنوانها (البلغة في شذور اللغة). وقد أشرف على تحقيق هذه الرسائل المستشرق أوغست هفنر والأب لويس شيخو .

(٢) الأصمعي : أبو سعيد عبد الملك بن قريب ، من اكبر علماء اللغة والرواية. وأغزرهم مادة ، وأوسعهم اطلاعاً وحفظاً ، ولد في البصرة سنة ١٢٢ هـ . وتوفي فيها سنة ٢١٦ هـ ، كان يكثر من التنقل في احياء العرب في البادية ، ويأخذ عنهم اللغة والأخبار .

(٣) كتاب (النخل والكرم) وكتاب (النبات والشجر) نشرا في مجموعة البلغة في شذور اللغة (انظر حاشيتنا السابقة على كتابي المطر واللبأ واللبن لابي زيد الانصاري) أما كتابا (الابل) و (خلق الانسان) فقد نشرا في بيروت سنة ١٣٢٢ هـ في مجموعة عنوانها : (الكنز اللغوي في اللسان العربي) . وأما كتابا (الشاء) و (الخيل) فقد طبعا بعناية المستشرق هفنر . وأما (اسماء الوحوش وصفاتها) فقد طبع بعناية المستشرق جاير .

كتاب الرحل والمنزل المنسوب لابن قتيبة [١] . وكل هذه الرسائل إنما جمعت فيها الألفاظ بحسب معانيها وموضوعاتها . وهذه الرسائل هي التي كانت المادة الاساسية لمعاجم المعاني التي ظهرت بعدها .

وهناك رسائل اخرى جمعت فيها الألفاظ لا بحسب المعاني بل تبعاً لاحد حروف أصولها ، وهي تحمل عادة اسم الحرف الذي يجمع بين هذه الاصول فيقال : كتاب الخاء و كتاب الجيم وهلم جرا ... ومن أشهر ما وصلنا من رسائل هذا النوع كتاب الهمز لأبي زيد الأنصاري [٢] .

وهناك نمط ثالث من هذه الرسائل جمعت فيها الألفاظ التي تربط بينها رابطة اخرى غير رابطة المعاني او الحروف. من ذلك مثلاً الكتب التي ألفت في الاضداد ، وقد جمعت فيها الألفاظ التي يستعمل كل منها للدلالة على الشيء وضده، مثل الجون الذي يطلق على الأسود والأبيض و كفعل بشرى الذي يدل على البيع وعلى الشراء [٣] . ومن ذلك ايضاً ما ألف في

---

(١) نشر كتاب (الرحل والمنزل) ايضاً في المجموعة المسماة (البلغة في شذور اللغة) راجعه هناك اعتباراً من الصفحة ١٢٢ .

(٢) نشر كتاب الهمز بتحقيق الأب لويس شيخو في بيروت عام ١٩١٠ م .

(٣) أشهر ما طبع من كتب الأضداد كتاب ابن الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ ، وقد طبع مرتين ، اولاهما في ليدن سنة ١٨٨١م باعتناء المستشرق هوتسما ، وثانيتهما في المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٩٠٧م. ثم ثلاثة كتب في الاضداد للاصمعي والسجستاني وابن السكيت نشرت في بيروت عام ١٩١٢ م بتحقيق المستشرق أ . هفنر.

مثلث الكلام ، وهي رسائل عديدة جمعت فيها الالفاظ التي وردت على ثلاث حركات بمعان مختلفة ، كأن تقول ، **الغمر** — بفتح الغين — الماء الكثير ، و **الغمر** - بكسرها — الحقد ، و **الغمر** — بالضم — الرجل الجاهل . ومن أشهر ماألف في هذا الباب مثلثات قطرب[1] .

ومن ذلك أخيراً الرسائل المختلفة التي جمعت فيها الافعال ذات الاشتقاق الواحد ككتاب **فعل و افعل** لقطرب و كتاب **فعلت وأفعلت** للزجاج [2] وغيرهما .

وكل هذه الرسائل كانت المادة الاساسية لمعاجم الالفاظ الكبرى التي ظهرت بعدها .

وفيما يلي أمثلة موجزة تبين طريقة تأليف هذه الرسائل :

---

(١) قطرب : ابو علي محمد بن المستنير ، وقطرب : لقب لقبه به استاذه سيبويه فغلب عليه ، كان عالماً باللغة والنحو والادب ، وهو على مذهب اهل البصرة ، وكان مؤدب أولاد أبي دلف العجلي ويقال انه اول من وضع المثلثات في اللغة . وقد طبعت **المثلثات** في المانيا سنة ١٨٥٧م بتحقيق المستشرق ولمار .

(٢) الزجاج : ابراهيم بن السري ، من علماء اللغة والنحو ، ولد في بغداد سنة ٢٤١ هـ ، وتوفي فيها سنة ٣١١ هـ ، كان اول امره يخرط الزجاج واليه نسب ، ثم اخذ النحو عن المبرد ، وأدب القاسم بن عبيد الله وكان ابوه وزير المعتضد العباسي ، فلما ولي القاسم الوزارة جعله من كتابه فأفاد ثروة حسنة . ألف كتباً منها (معاني القرآن) و (الاشتقاق) و (فعلت وأفعلت) وهذا مطبوع في مصر سنة ١٣٢٥ هـ ضمن مجموعة (الطرف الادبية) .

جاء في كتاب الهمز لأبي زيد الأنصاري :

« تقول ، في باب من الهمز بَسأت الرجل أبسأ به بسئاً وبسوءاً ، وبَهأت به بهئا وبُهوءاً وهما واحد وهو استئناسك به . وتقول بَرأت من المرض فأنا أبرُؤ وأبْرأُ برءاً وبروءاً ، هذا من لغة أهل الحجاز وسائر العرب يقولون : بَرِئت من المرض أبرأُ برءاً وبرئت من الدَّين أبرأ براءةً . وتقوله : أبدأت من أرض إلى أخرى إذا خرجت منها إلى غيرها إبداء . وتقول : بُدِيءَ به فهو مبدوء ، إذا أخذه الجُدَريّ والحصبة . وتقول : بدأت بالأمر بدءاً . وتقول بكأت الشاة تبكأ بَكئاً وبَكُؤت تبكؤ بَكاءةً وبكئاً إذا قلّ لبنها ، وهي شاة بكيئة . وتقول : بذأته أبذؤه بذءاً إذا ذممته ...

وتقول في باب آخر من الهمز : قد رزأت الرجل أرزؤه رزءاً ومرزئة إذا أصبت منه خيراً ما كان . وتقول : ربأت القوم أربؤهم إذا كنت لهم طليعة فوق شرف فاسم الرجل الربيئة . وتقول : أرجأت الامر إرجاءً إذا أخرته . وتقول : أرفأت السفينة إرفاءً إذا قربتها من الارض . وتقول : رفأت الثوب أرفؤه رَفئاً ورفّأت المملك (من الاملاك وهو الزواج) ترفئة إذا دعوت له . وتقول : رافأني الرجل في البيع مرافأةً إذا حاباك به ...

وتقول في باب آخر من الهمز : قد دنأ يدنأ دناءة ودنؤ يدنؤ إذا

كان دنيئاً لاخير فيه . وتقول : دألت للشيء أدأل دألاً ، ودأيت له أدأى دأياً إذا ختلته . تقول : دألت أدأل دألاً ودألاناً ، وهي مشية شبيهة بالختل . ويقال : الذئب يدأل للغزال ليأكله . الخ .. »(١)

في هذا النص تتضح طريقة المؤلف في كتابه . فهو يعرض في كل باب منه الاصول اللغوية المنتهية بهمزة والمبدوءة بأحد حروف الهجاء . والنص المستشهد به مقتطف من أبواب ثلاثة متلاحقة في الكتاب وهي أبواب : الباء والزاي والدال . ونلحظ بسهولة أن أبواب الكتاب لم ترتب حسب الترتيب الهجائي المعروف . كما أن الألفاظ في كل باب من هذه الفصول ليست مرتبة أيضاً . فقد وردت الألفاظ في الباب الأول مثلاً بالترتيب التالي : بدأ - برأ - بدأ - بطأ - بذأ . وكان من حقها لو رتبت أن تكون هكذا : برأ - بذأ - برأ - بسأ - بطأ . وقس على ذلك الابواب الاخرى . كل هذا يدل على أن جمع اللغة في مثل هذا الكتاب كان مايزال في بدء مرحلة التنظيم .

وهذه أمثلة من كتاب آخر لابي زيد الانصاري جمعت فيه المفردات بحسب معانيها .

جاء في كتابه المطر :

« أسماء الرعد : الرعد وجماعه الرعود . ويقال : رَعَدت السماء

(١) : انظر كتاب الهمز لأبي زيد ص ٦ و ٧ و ١٢ .

فهي تَرعد رَعداً ، وأرعد القوم إرعاداً إذا أصابهم الرعد . وفي الرعد **الارزام** وهو صوت الرعد . غير الشديد منه . وفيه **التهَزّم** وهو أشد صوت الرعد شديده وضعيفه ، وهو الهزيم . ويقال :تهزم الرعد تهزماً وانهزم انهزاماً وفيه **القعقعة** وهو تتابع صوت الرعد في شدة ، وجماعها القعاقع . وفيه **الرَّجْس والرَّجَسان** وهو صوت الرعد الثقيل ، رَجَس الرعد ورجست السماء ترجس رَجساناًورجساً . وفيه **الصاعقة** وجمعها الصواعق وهي نار تسقط من السماء في رعد شديد . ويقال : أصعقت علينا السماء إصعاقاً . وفيه **الازيز** وهو صوت الرعد تسمعه من بعيد ..

اسماء البرق : البرق وجماعه البروق ويقال بَرقت السماء تبرق بَرقاً وأبرقَ القوم إبراقاً إذا أصابهم البرق ، **وتكشف** البرق تكّشفا وهو إضاءته في السماء . **واستطار** البرق استطارة وهو مثل التكشف . **ولمع** البرق يلمع لَمعاً ولَمعاناً وهي البرقة ثم الأخرى المرّة بعد المرة . **ولمح** البرق يلمح لَمحاً ولَمحاناً وهو مثل اللمع غير أن اللمع لايكون إلا من بعيد . **وتبسم** البرق تبسماً الخ .. »[١]

ونعتقد أن هذه الأمثلة كافية لبيان الخطوة التي حققتها هذه الرسائل المقتضبة في طريق تنظيم جمع اللغة .

المرحلة الثالثة — وهي مرحلة وضع المعاجم العامة الشاملة المنظمة .

---

(١) : انظر كتاب المطر لأبي زيد في مجموعة البلغة ، ص ١٠٦ — ١٠٨

وقد اتبّع في ترتيب مفردات اللغة في هذه المعاجم ثلاث طرق مختلفة نتحدث عنها فيما يلي بحسب ترتيب ظهورها زمنياً .

آ — ترتيب الالفاظ بحسب مخارج الحروف

يكاد يتفق المؤرخون على أن أول من جمع اللغة أو حاول جمعها في معجم هو **الخليل بن أحمد الفراهيدي**[1] . واسم المعجم الذي قيل إن الخليل وضعه هو كتاب **العين** . وقد رتبت فيه الالفاظ بحسب مخارج

---

(١) الخليل بن احمد : ابو عبد الرحمن ، الخليل بن احمد الفراهيدي الازدي اكبر علماء زمانه في العربية ومختلف علومها ، وأشدهم ذكاء ، وأخصبهم عبقرية ، وهو الذي استنبط العروض ، ولد في البصرة نحو سنة ١٠٠ ﻫ وتوفي فيها سنة ١٧٥ ﻫ ، وعاش فقيراً زاهداً راغباً عن الدنيا ، منقطعاً الى علومه ؛ وهو أستاذ سيبويه .

ألف كتاب (العين) وهو اول معجم في اللغة العربية . والكتاب مايزال مخطوطاً نشر منه الاب أنستاس الكرملي جزءاً عدد صفحاته ١٤٤ ، في بغداد عام ١٩١٤ م ، ثم حالت الحرب العالمية الاولى دون اتمام طبعه ، ويقوم الآن بتحقيقه واعداده للنشر الدكتور عبد الله درويش (انظر مجلة معهد المخطوطات ، ج ٢ ص ٣٤٣) .

ولكتاب العين مختصر ألفه ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الاندلسي الاشبيلي المتوفي سنة ٣٧٩ ﻫ ولا يزال هذا المختصر **مخطوطاً ايضاً** . ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم (٣٨٦) لغة . واخرى بالتيمورية برقم (١) لغة . انظر بحثاً قيماً في كتاب العين وأولية المعاجم العربية نشر في مجلة المجمع العلمي العربي عام ١٩٤١ بقلم الدكتور يوسف العش .

الحروف مع مراعاة أواخر الأصول لا أوائلها . فكلمة (نبع) في باب العين ، وكلمة (يمم) في باب الميم وهكذا ... ولم يرتب الخليل أبواب كتابه بحسب الترتيب الهجائي المعروف : ا ب ت ث ج الخ .. بل بحسب ترتيب مخارجها ، فبدأ بحروف الحلق فاللسان فالاسنان فالشفتين الخ .. وختم كتابه بحروف العلة مما أدى إلى جعل ترتيب الكتاب على الشكل التالي : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ا ي . كما انه اتبع الطريقة نفسها في ترتيب مفردات كل باب على حدة فلفظة قرع في باب العين قبل زرع وهذه اللفظة قبل رفع وهذه الأخيرة قبل برع وهكذا ..

وقد بدأ الخليل بحرف العين لأنه من أقصى حروف الحلق ، وإن لم يكن أقصاها . وباسم باب العين الذي هو الجزء الاول من المعجم سمي الكتاب كله . ويقال إن الخليل لم يبدأ بالهمزة ولا بالهاء مع انهما اقصى مخرجاً من العين لأن الهاء مهموسة وخفية ولأن الهمزة غير ثابتة بل هي عرضة للحذف والتغيير .

ومن خصائص طريقة الخليل في كتاب العين أنه لم يكن يكتفي بأن يذكر في كل باب الكلمات المنتهية بحرف معين ، بل كان يذكر أيضاً بعد كل مادة منتهية بهذا الحرف الكلمات التي تحدث عن تبديل موضع هذا الحرف في الاصل المذكور . فهو إذا ذكر مثلاً مادة صرع في باب العين وشرحها انتقل بعدها الى المواد الآتية : رصع وعصر

وصمر الخ .. وهو ما اصطلح لغويو العرب على تسميته بالاشتقاق الكبير [١] .

ويرى بعض المؤرخين أن الخليل لم يكن إلاّ صاحب فكرة وضع المعجم ومبتدع طريقة ترتيبه . أما تنفيذ هذه الفكرة فمن عمل الليث بن المظفر [٢] . وليس من المستبعد أن يكون الخليل صاحب الفكرة والتصميم وواضع الجزء الاول من الكتاب ، وأن يكون الليث بن المظفر او سواه متمم الكتاب . ذلك أنّ الخليل كان من العباقرة الافذاذ ، وكان الذي يأخذ عليه لبه إنما هو الرغبة الملحة في الاستنباط والاختراع في اللغة والنحو والصرف والعروض والموسيقى والحساب . ولعلّ تأمله في الاصوات موسيقياً هو الذي هداه الى اتباع الطريقة التي أشرنا اليها في ترتيب الفاظ اللغة . ومن المعلوم أن العباقرة المخترعين يكتفون عادة بنجاح الاختراع ويتركون

---

(١) أما الاشتقاق الصغير فهو أخذ الصيغ والمباني المختلفة من اصل واحد كأخذ عالم ومعلوم ومعلم وعلم يعلم من الاصل (ع ل م) . واما الاشتقاق الاكبر فهو اتفاق كلمتين في حرفين من حروف الاصل مع تناسب بينهما في المعنى مثل : كدّ وكدح وردّ وردع ومحا ومحق وهذي وهذر واحتفى واحتفل الخ ...

(٢) الليث بن المظفر حفيد نصر بن سيار والي خراسان لبني أمية ، ويقال : بل هو ابنه . وكان من اصحاب الخليل بن احمد . انظر ترجمته في معجم الادباء لياقوت .

لسواهم تفاصيل التنفيذ . ولعل الخليل ــ كسواه من هؤلاء المبتكرين ــ اكتفى بوضع طريقته لترتيب ألفاظ اللغة ولحصر أصولها حسابياً تاركاً لسواه أمر التطبيق والتنفيذ بعد أن كتب الجزء الاول من كتابه ليكون مثلاً يحتذى . ومما يقوي هذا الفرض أن كثيراً من علماء اللغة الثقات كابن جني[١] والقالي[٢] رأوا في كتاب العين من الفساد والتخليط ما لا يعقل صدور مثله عن مثل الخليل[٣] : ومما

---

(١) ابن جني : أبو الفتح عثمان بن جني . من اكبر أئمة النحو والتصريف واللغة ، وأدقهم نظراً ، وأقدرهم على الوقوف على أسرار تركيبها ، ولد في الموصل ، وكان ابوه مملوكاً رومياً ، وصحب ابا علي الفارسي اربعين سنة ، وكانت وفاته ببغداد سنة ٣٩٢ هـ .

له من الكتب (الخصائص) وهو كتاب نفيس طبع في ثلاثة اجزاء بدار الكتب المصرية بتحقيق الاستاذ محمد علي النجار . و (سر الصناعة) و (المنصف) وقد شرع بطبعهما حديثاً ، وكتب اخرى كثيرة .

(٢) القالي : ابو علي اسماعيل بن القاسم ، كان من أحفظ أهل زمانه للغريب والشعر والاخبار ولد في منازجرد (في ديار بكر بالجزيرة) سنة ٢٨٨ هـ ، وفيها نشأ ، ثم انقلب الى العراق ، وتلقى علومه ببغداد على ابن دريد وغيره ، ثم رحل الى الاندلس سنة ٣٢٨ هـ ، وأقام بقرطبة ، أيام عبد الرحمن الناصر . وكان ابنه الحكم يحبه ويرعاه وقد أملى كتابه المشهور (الامالي والنوادر) في مسجد قرطبة ، وله من الكتب (البارع) وقد طبع قسم منه بالتصوير ، و (المقصور والممدود والمهموز) وسواها . وكانت وفاته سنة ٣٥٦ هـ .

(٣) : انظر ما قاله في هذا الصدد السيوطي في كتابه المزهر ، ج ١ ، ص ٣٩ ــ ٤٠ .

يقوي هذا الرأي أيضاً في نظرنا كون الخليل قد عاش في عصر لم يكن جمع اللغة فيه قد تمّ ، بل كان الرواة فيه ما يزالون يجدون في جمع شتات اللغة وتدوينها في الرسائل الصغيرة . وإذا صحّ أن الخليل قد وضع معجمه بنفسه بكامله كان ذلك أعجوبة خارقة في تاريخ تدوين اللغة ، إذ يكون هذا المعجم قد سبق سواه من المعاجم العربية بقرن ونصف قرن تقريباً ؛ ذلك أن أول معجم جامع ظهر بعد كتاب العين هو كتاب الجمهرة الذي سيأتي الحديث عنه لمؤلفه ابن دريد المتوفى نحو سنة ٣٢١ هـ .

وقد سار على نسق الخليل في تأليف المعاجم مع بعض الاختلافات الطفيفة أحياناً عدد من علماء اللغة الذين جاءوا بعده كأبي منصور الازهري في التهذيب [١] وابن سيده الاندلسي في المحكم [٢] .

---

(١) الأزهري : ابو منصور محمد بن احمد بن الأزهر الهروي . أحد أئمة اللغة والمصنفين فيها . ولد في هراة من أعمال خراسان سنة ٢٨٢ هـ ، وفيها توفي سنة ٣٧٠ هـ . كان أول امره معنياً بالفقه ، ثم غلبت عليه اللغة ، فرحل الى البادية وأخذ عن الاعراب أما معجمه (التهذيب) فما يزال مخطوطاً .

(٢) ابن سيده : أبو الحسن علي بن اسماعيل الاندلسي ، ولد في مرسية (شرقي الاندلس) وانتقل بعد الى دانية وفيها توفي سنة ٤٥٨ هـ . وهو من علماء اللغة المشهورين بسعة الحفظ وجودته وكان ضريراً ، أما معجمه (المحكم) فقد أعدت اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية العدة لطبعه .

ب — ترتيب أصول الكلمات حسب حروف المعجم مع مراعاة أوائل هذه الأصول :

وهذه الطريقة نفسها قد مرَّت بمراحل عديدة قبل أن تبلغ شكلها السهل المألوف اليوم .

فمن أوائل اللغويين الذين اتبعوا هذا الاسلوب في ترتيب المعاجم - إن لم يكن أولهم - ابن دريد الأزدي المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، وذلك في كتابه جمهرة اللغة [١] .

وقد رتبت الكلمات في هذا المعجم من حيث المبدأ حسب الترتيب الهجائي لحروف أصولها ، مع مراعاة أوائل هذه الاصول . نقول من حيث المبدأ لان ابن دريد قد سار على نهج الخليل من حيث النظر

---

(١) ابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد شاعر وعالم ، من كبار علماء العربية . ولد في البصرة سنة ٢٢٣ هـ ، ورحل الى عمان فأقام فيها ١٢ عاماً ثم رجع الى البصرة ، ومنها رحل الى فارس فبغداد ، واتصل بالخليفة المقتدر ، فأجرى عليه راتباً الى ان توفي سنة ٣٢١ هـ .

له من الكتب (الاشتقاق) وهو كتاب نفيس ، طبع في غوتنجن بعناية المستشرق وستنفلد سنة ١٨٥٣ م ، و (الملاحن) طبع في ليدن سنة ١٨٥٩ بعناية المستشرق رايت ، ثم في غوتنجن سنة ١٨٨٢ بعناية المستشرق هيدلبرج ، ثم في مصر سنة ١٣٢٣ هـ . واكبر كتبه (الجمهرة) طبع في حيدر آباد بين سنتي ١٣٤٤—١٣٥٢ هـ

إلى تقلبات الاصل الواحد حسب نظرية الاشتقاق الكبير التي أشرنا اليها آنفاً . فهو إذا ذكر مادة بتق وشرحها في باب الباء انتقل بعدها إلى تقب . وكذلك إذا بلغ في الباب نفسه مادة بقل ذكر بعدها على التوالي : قبل - قلب - لقب - لبق إلخ ... وهذا مما عقّد طريقته التي هي من حيث الاصل سهلة مأنوسة ، واضطر الباحث أن يتحرى المادة التي يريدها ، لا في باب الحرف الاول من حروفها بل في باب الحرف الذي يسبق باقي حروفها من حيث الترتيب الهجائي . فمادة لقب إنما نجدها في بقل ، ولبس في بسل ، ونسب في بسن وهكذا ...

وسبب ذلك أن ابن دريد ، شأنه في ذلك شأن الخليل بن أحمد ، أراد تجنّب التكرار في كتابه فلم يبدأ بعد الحرف الاول إلا بالحرف الذي يليه . فهو إذا بلغ باب الراء من الثلاثي الصحيح مثلاً ، بدأ بذكر الاصول التي تبدأ براء ثم بزاي مثل رزم - رزن ... ثم ذكر الاصول التي تبدأ براء ثم بسين مثل رسغ - رسف - رسل ... ولكنه لا يذكر في هذا الباب مادة ربح لان ذكرها سبق في برح ولا رجم لان ذكرها سبق في جرح ولا رحم لانه سبق شرحها في حرم ولا رزح لانها سبقت في حرز ولا رسخ لانها سبقت في خرس ، وعلى هذا فقس...

ومما يزيد في تعقيد طريقة الجمهرة أن المؤلف لم ينظر إلى مفردات

اللغة نظرة واحدة ، بل قسمها إلى فئات بحسب عدد أحرف أصولها ونوع بنائها ، ورتب كل فئة في باب مستقل .

فالمادتان بثّ وبرّ نجدهما في فصل الباء من باب (الثنائي الصحيح) كما يسميه ابن دريد . أما بثبث و بربر فنجدهما في فصل البـاء من باب آخر يسميه ابن دريد (باب الثنائي الملحق بالرباعي) . وأما بثر و برز فنجدهما في فصل الباء من باب ثالث ، هو (باب الثلاثي الصحيح) وتأتي بعد ذلك أبواب المعتل والرباعي وغيرهما ...

وكتاب الجمهرة يبقى على رغم كل ما ذكرنا مرجعاً لغوياً قيماً لانه أقدم معجم مفصل وصلنا بتمامه ، إذ أن كتاب العين على ما يعتور قصة وضعه من شكوك لم يصبح بعد في متناول الايدي كما ذكرنا . نعم ، إن ابن دريد سار على نهج الخليل في كثير من الاسس التي اتبعها ، ولكن الفضل يعود إليه في الخروج عن الطريقـة الصوتية في ترتيب المعجم إلى النظام الهجائي المألوف وهو تجديد كبير كان له أثره فيما بعـد . وقد اضطر ناشرو الجمهرة ـ لما لها من قيمة ـ أن يصنعوا لها فهارس أبجدية مطولة لايقل حجمها عن حجم الاصل ، مما جعل المراجعة في هذا الكتاب أمراً سهلاً وميسوراً .

ثم جاء ابن فارس [1] فألف في اللغة معجمين اثنين بناهما على أسس

---

(١) ابن فارس : أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي ، امام في اللغة والادب وهو استاذ البديع الهمذاني ، والوزير الصاحب ابن عباد ، كانت ولادته سنة

واحدة ، أحدهما مختصر وهو **المجمل** وثانيهما جامع مفصل وهو كتاب **مقاييس اللغة** . وطريقة ابن فارس في معجميه هذين، كطريقة ابن دريد قائمة على ترتيب مفردات اللغة على حروف المعجم مع مراعاة أوائل الكلمات ؛ إلا أن ابن فارس هذّب طريقة سلفه من ناحيتين: أولاهما أنه لم يراع تقلبات الاصل الواحد بل ذكر كل مادة في باب الحرف الاول منها . فمادة **قبل** في حرف القاف ، و **بقل** في الباء و **ابق** في اللام. أما ابن دريد فقد رأينا أنه كان يذكر كل هذه المواد في حرف الباء . والناحية الثانية هي أن ابن فارس لم يقسم كلاً من معجميه إلى أبواب كبيرة تبعاً لعدد الحروف التي تتألف منها الاصول العربية ، كما فعل ابن دريد حين قسم الجمهرة إلى أبواب عديدة ، كباب الثنائي الصحيح وباب الثنائي الملحق بالرباعي ، وباب الثلاثي الصحيح ، وباب الثلاثي المعتل ، وباب الرباعي... ولكنه قسم كلا منهما إلى كتب بعدد حروف المعجم ثم قسم كل كتاب بدوره إلى أبواب ثلاثة : ١ـ الثنائي المضاعف، ٢ ـ الثلاثي ، ٣ ـ ما فوق الثلاثي . وبذلك صرنا نجد مثلاً المواد : بثّ ـ بثر ـ **بلعم** في كتاب الباء نفسه بينما كنا لا نعثر عليه في الجمهرة إلا في أجزاء متفرقة .

---

٣٢٩ ﻫ وأصله من قزوين ، ثم أقام في الري فتوفي فيهاسنة ٣٩٥ ﻫ واليهانسبته.

له من التصانيف (مقاييس اللغة)طبع في مصر في ستة أجزاء سنة ١٣٦٦ ﻫ بتحقيق عبد السلام هارون و (المجمل) طبع الجزء الاول منه في مصر مرتين سنة ١٣٣١ ﻫ وسنة ١٩٤٨ م .

ومما يؤسف له أن ابن فارس التزم في البابين الاولين من كل حرف ما التزمه ابن دريد قبله من حيث ترتيب المفردات ، فهو لا يبدأ بعد الحرف إلا بالذي يليه ، كأن يبدأ في باب الثلاثي من كتاب الباء بذكر بتر ، ثم بثر ، ثم بجر ... حتى إذا استنفد حروف الهجاء بعد الباء وبلغ الياء في بيع وبيو عاد فذكر بأس وما أشبهها وكان من حقه أن يبدأ بها . ولئن كان لهذا الأسلوب المعقد ما يُسوّغه في الجمهرة ، إذ استطاع به مؤلفها تجنب التكرار حين نظر في كل مادة إلى تقلبات حروفها ، فليس هناك ما يسوغه في معجمي ابن فارس الذي عزف كما رأينا عن الاخذ بهذا المبدأ في معجميه .

* * *

ولبث اللغويون بعد ابن فارس يتخبطون في مثل هذه الطرق ، محاولين تلمس اسهل الوسائل إلى ترتيب ألفاظ اللغة في معاجمهم ، إلى أن استطاعوا بعد جهود كثيرة التخلص من الاعتبارات الصرفية التي كانت تعقد عملهم ، فوضعوا المعاجم المرتبة على حروف الهجاء مراعين فيها أوائل الأصول من غير خروج أو شذوذٍ عن القاعدة .

أما أن اللغويين لم يصلوا إلى هذا النمط الطبيعي السهل في ترتيب المعاجم إلا بعد أن تخبطوا أجيالاً طويلة في مثل هذه الطرق الملتوية التي وصفناها فهو امر جد طبيعي . ذلك أن السهولة والبساطة هما

الكمال عينه. فهما لهذا السبب أصعب الأشياء وأرقاها. ولا تصل الانسانية في مستحدثاتها إلى السهولة والبساطة والطبع إلا بعد كثير من التجارب والجهود والتضحيات، وبعد أن تمر بأدوار عديدة كلها صعوبة وتصنع وتعقيد. وهذا المبدأ ينطبق على المبتكرات الانسانية جميعها، مادية ومعنوية.

ولعل أول معجم تمثلت فيه هذه الطريقة المنطقية البسيطة السهلة من بين المعاجم التي وصلتنا هو كتاب أساس البلاغة للإمام الزمخشري[1]

(١) الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري. ولد في زمخشر سنة ٤٦٧ هـ وجاور في مكة زمناً، وتقلب في البلاد، وتوفي في (جرجانية) من قرى خوارزم سنة ٥٣٨ هـ. وهو من أئمة الدين والتفسير واللغة، أشهر مؤلفاته (تفسير الكشاف) وقد طبع في الهند ومصر مراراً. وأما معجمه (أساس البلاغه) فقد طبع في مصر اكثر من مرة. ومن آثاره ايضاً (المفصل) في النحو وطبع مراراً في مصر لوحده ومع شرح ابن يعيش عليه.

ولكن ليس من الثابت ان الزمخشري هو السابق الى هذه الطريقة في الترتيب؛ فقد ذهب بعض الباحثين الى ان أول من نحا هذه الطريقة في ترتيب المعاجم هو أبو المعالي محمد بن تميم البرمكي (؟) فقد اخذ معجم (الصحاح) للجوهري ورتبه على هذه الطريقة؛ والقطع التي تبقت من كتابه تشير الى انه فرغ من تأليفه سنة ٣٩٧ هـ، أي قبل ميلاد الزمخشري بسبعين سنة. (انظر كتاب الصحاح ومدارس المعجمات العربية، لاحمد عبد الغفور عطار ص ١١٦ ثم ص ١٣٣ – ١٣٦).

ويظهر مما ذكره ابن الأثير في مقدمة معجمه (النهاية في غريب الحديث=

وهو معجم قيم عني فيه مؤلفه بذكر المعاني المجازية للالفاظ إلى جانب معانيها الحقيقية وسنعود إلى ذكره وبيان مزاياه بعد أن نفرغ من هذا العرض التاريخي . وقد سار على نهجه فيما بعد عدد من مؤلفي المعاجم أشهرهم مجد الدين بن الأثير في معجمه الضخم: **النهاية في غريب الحديث**[1]،

= والاثر) ان أحمد بن محمد الهروي المتوفي سنة ٤٠١ — وهو معاصر للبرمكي — قد سلك هذه الطريقة في (كتاب الغريبين : غريب القرآن وغريب الحديث) وان الحافظ أبا موسى محمد بن ابي بكر الاصفهاني المتوفى سنة ٥٨١ هـ « صنف كتاباً جمع فيه مافات الهروي من غريب القرآن والحديث سلك في وضعه مسلكه ، وذهب فيه مذهبه ، ورتبه كما رتبه » ويقول ابن الاثير انه — هو نفسه — سلك طريقتها في الترتيب « من التقفية على حروف المعجم بالتزام الحرف الاول والثاني من كل كلمة واتباعها بالحرف الثالث منها على سياق الحروف » . (وانظر مقدمة النهاية ص ٧ — ٩) .

والزمخشري نفسه قد نهج قريباً من هذا النهج في كتابه (الفائق في غريب الحديث) — وقد طبع هذا الكتاب في حيدر آباد سنة ١٣٢٤ هـ ، ثم في مصر سنة ١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م — فقد التزم — في ترتيبه — الحرف الاول والثاني ، الا انه ربما أهمل مراعاة الثالث .

على أن (اساس البلاغة) أقدم معجم روعيت فيه هذه الطريقة من بين المعاجم المطبوعة المتداولة في أيدينا .

(١) ابن الاثير : مجد الدين المبارك بن محمد الجزري ، ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٤٤ هـ . ورحل الى الموصل فجعله صاحبها من اخصائه . اصيب اواخر حياته بالنقرس وتوفي في احدى قرى الموصل سنة ٦٠٦ . وهو من علماء الحديث واللغة والأصول ، ألف كتباً كثيرة اهمها (النهاية في غريب الحديث) وهو مطبوع في اربعة أجزاء في مصر سنة ١٣٢٢ هـ . =

وأحمد بن محمد الفيومي في معجمه المختصر اللطيف : **المصباح المنير**[١] .
ولا ننس أن طريقة الزمخشري هي الطريقة التي تتبعها كل المعاجم العربية الحديثة .

هـ ـ ترتيب الكلمات حسب الترتيب الهجائي ، مع مراعاة أواخر الكلمة

أول من اتبع هذه الطريقة في ترتيب المعاجم ابو نصر الجوهري[٢] أحد علماء اللغة في القرن الهجري الرابع ، وذلك في معجمه المشهور

= وابن الاثير ـ في معجمه هذا ـ ربما اهمل رد الكلمة الى اصولها ، فقد يضع بعض الكلمات في باب الحرف الزائد منها اذا كان اولا ، وقد أشار الى ذلك في مقدمة كتابه ، وذكر الدافع له على هذه الخطة ، قال : « الاني وجدت في الحديث كلمات كثيرة في اوائلها حروف زائدة قد بنيت الكلمة عليها حتى صارت كأنها من نفسها وكان يلتبس موضعها الاصلي على طالبها ، لاسيما واكثر طلبة غريب الحديث لايكادون يفرقون بين الاصلي والزائد فرأيت ان اثبتها في باب الحرف الذي هو في اولها وان لم يكن اصلياً ، ونبهت عند ذكره على زيادته ؛ لئلا يراها احد في غير بابها فيظن أني وضعتها فيه للجهل بها فلا أنسب الى ذلك .» مقدمة النهاية ص ٩ .

(١) الفيومي خطيب ولغوي معروف من رجال القرن الهجري الثامن. كان خطيب جامع الدهشة بحماة . وقد طبع معجمه (المصباح المنير) عدة طبعات في مصر .

(٢) أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري ، من أئمة اللغة في القرن الرابع . أصله من (فاراب) ، توفي نحو سنة ٣٩٣ هـ . يقال انه مات قتيلاً بعد أن حاول الهبوط من سطح المسجد الى الارض طائراً بجناحين من خشب اخترعهما .

تاج اللغة وصحاح العربية المعروف اختصاراً بمعجم الصحاح [١].

وخلاصة هذه الطريقة ان تصنف أصول اللغة في ثمانية وعشرين باباً بعدد حروف الهجاء ، أولها باب الهمزة وآخرها باب الالف اللينة . وقد جرى متبعو هذه الطريقة من مؤلفي المعاجم على دمج الواو والياء في باب واحد ، وذلك لأن الواو والياء في آخر الكلمة كثيراً ما تقلبان ألفاً . ثم يثبت كل أصل من هذه الاصول في باب الحرف الاخير منه . فالاصول التالية : أرب ، طرب ، عجب ، لعب ، كتب ، ... الخ تثبت في باب الباء . وكذلك تثبت الاصول التالية : برع ، جمع ، صرع ، نفع ، وقع .. في باب العين ، وهكذا .. ثم تصنف هذه الاصول بعد ذلك في كل باب بحسب ترتيب أوائلها بعد أن يقسم كل باب الى ثمانية وعشرين قسماً أيضاً يسمى كل منها فصلاً . وبحسب ما تقدم تثبت كلمة قرأ في فصل القاف من باب الهمزة ، وهو أول أبواب المعجم . وتثبت كلمة أتى في فصل الهمزة من باب الواو والياء . وترتب الاصول في كل فصل بحسب الترتيب الهجائي لما يلي الحرف الاول من حروف الاصل ففي فصل الخاء من باب الباء مثلاً ترتب الاصول الثلاثية كما يلي : خبب ، خدب ، خرب ، خزب ، خشب ، خصب ، خضب ، خطب .. الخ .

---

(١) طبع (الصحاح) في مجلدين سنة ١٢٩٢ هـ في مطبعة بولاق المصرية . ويعاد طبعه الآن في مصر بتحقيق الاستاذ أحمد عبد الغفور عطار .

وينتهي هذا الفصل بمادة ضبب . وفي فصل السين من باب الراء ، ترتب هذه الاصول مثلاً كما يلي : سأر ، سبر ، ستر ، سجر ، سحر ، سخر ، سدر ، سرر ، سطر ، سعر ... الخ وينتهي هذا الفصل بمادة سبر .

وإذا كانت الأصول رباعية روعي فيها أيضاً ترتيب ثوالثها بعد مراعاة ترتيب ثوانيها على الشكل الذي ذُكر آنفاً . فبعد أن تثبت مادة سعر مثلاً في موضعها من فصل السين وباب الراء ، تُثبت الأصول الرباعية التالية المتصلة بهذه المادة : سعبر[١] ، سعتر[٢] ... إلخ . وكذلك بعد أن تذكر مادة سمر في موضعها من الفصل نفسه تذكر الأصول الرباعية التالية : سمسر[٣] ، سمهر[٤] .. وهكذا دواليك .

ولم يذكر الجوهري في مقدمة معجمه الاسباب التي حملته على مراعاة أواخر الاصول اللغوية في ترتيب معجمه ، وللباحثين تعليلات كثيرة لهذا الترتيب لاشك أن من اجدرها بالاعتبار كون هذه الطريقة تسهل على الناظمين امر اختيار قوافيهم . ويجب ألا ننسى ان هذه الطريقة في الاعتماد على آخر الكلمة هي طريقة قديمة لانها طريقة الخليل

---

(١) السعبر والسعبرة : البئر الكثيرة الماء .

(٢) السعتر : نبت معروف ، وبعضهم يكتبه بالصاد .

(٣) السمسار : هو الوسيط في التجارة وهي لفظة فارسية معربة .

(٤) السمهري : الرمح الصليب العود .

ابن احمد نفسه في كتاب العين وطريقة ابي زيد الانصاري في كتاب الهمز .

وهذه الطريقة في الترتيب ، وإن بدت للوهلة الاولى معقدة ومعكوسة فهي سهلة جداً . وفي وسع الطالب أن يألفها بشيء من العادة والمراس .

وقد سار على نهج الجوهري في ترتيب المعاجم فيما بعد عدد من أشهر مؤلفي المعاجم كابن منظور المصري في (لسان العرب)[1] ومجد الدين الفيروزابادي في (القاموس المحيط[2]) . وسنعود الى ذكر هذين المعجمين بعد قليل لشهرتهما وكثرة الحاجة اليهما .

وقد سمى الجوهري معجمه الصحاح[3] مشيراً بهذه التسمية الى حرصه الشديد على ذكر الالفاظ الصحيحة دون سواها . ولعله كان

---

(١) ابن منظور المصري لغوي وأديب كبير ، اسمه محمد بن مكرم ، عاش أكثر حياته في مصر ، وتوفي في القاهرة سنة ٧١١ هـ . وقد طبع معجمه لسان العرب في مطبعة بولاق المصرية سنة ١٣٠٠ هـ في عشرين مجلداً ، ثم أعيد طبعه أخيراً في بيروت .

(٢) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي من كبار لغويي القرن الهجري الثامن ، توفي سنة ٨١٦ هـ أصله من فيروزاباد ، وهي قرية فارسية بالقرب من شيراز . وقد طبع معجمه (القاموس المحيط) في اربعة اجزاء اكثر من مرة .

(٣) صحاح — بكسر الصاد — جمع صحيح ، وبفتح الصاد وصف بمعنى صحيح . وقد لفظ عنوان معجم الجوهري بالوجهين .

يرى أن من سبقه من مؤلفي المعاجم كالخليل بن أحمد وابن دريد مثلاً ، ذكروا في معاجمهم من الالفاظ مالم تثبت صحته . والمراد بصحة اللفظة هنا أن تكون موثوقة الرواية عن العرب[1] .

أشهر المعاجم التي سبق ذكرها :

لعل أجدر هذه المعاجم العربية القديمة التي عرضنا لذكرها بالتنويه وأكثرها تداولاً ثلاثة : أساس البلاغة للزمخشري ولسان العرب لابن منظور المصري ، والقاموس المحيط للفيروزابادي . ولذا كان من المستحسن في آخر هذا الفصل أن نخص كلاً منها بكلمة نبين فيها مزاياه وخصائصه .

آ — أساس البلاغة : لهذا المعجم في نظر الادباء والباحثين منزلة لايشركه فيها معجم آخر . ذلك أن مؤلفه — وهو من كبار علماء البلاغة — كان ، مع عنايته ببيان المعاني الحقيقية للألفاظ ، يوجه جل اهتمامه الى بيان استعمالاتها المجازية .

ويمكن تلخيص مزايا هذا المعجم بما يلي :

---

(١) وللمعجم الصحاح مختصر لطيف جداً اسمه (مختار الصحاح) صنعه محمد ابن أبي بكر الرازي المتوفى سنة ٧٦٠ هـ . وكان ترتيبه في الاصل كترتيب الصحاح ولكن احد العلماء المصريين المعاصرين وهو الاستاذ محمود خاطر أعاد تنسيق مفرداته حسب ترتيب أوائلها في حروف الهجاء نزولاً عند رغبة وزارة المعارف المصرية . وقد ظهرت اول طبعة من (مختار الصحاح) على هذه الصورة عام ١٩٠٥ م .

١ً – يكتفي في الغالب بذكر الافصح من اللغات .

٢ً – يذكر المعنى الحقيقي للفظ أولاً ، ثم ينتقل في فقرة ثانية الى ذكر معانيه المجازية ، فلا يمزج بين المعنيين كغيره من المعاجم .

٣ً – لايشرح معنى الالفاظ الا في النادر ، وعندالضرورة .وهو يفهمنا معنى اللفظ في غالب الاحيان باستعماله اياه في أمثلة فصيحة . وهذه الطريقة جيدة وذكية لانها تبين للقارىء معنى اللفظ وطريقة استعماله في آن واحد . واللفظة لاتكون حية ولا يتضح معناها تماماً الا اذا كانت مستعملة في جملة . اما الاكتفاء بشرح معنى اللفظة شرحاً نظرياً فكثيراً مايفقد اللفظة حياتها ويجعل القارىء في حيرة من أمره إذا حاول استعمالها في حديثه او في كتابته .

والرجوع الى أساس البلاغة في غاية السهولة . فللبحث عن لفظة ما نعيدها الى اصلها بعد طرح الزوائد منها ، ثم نفتش عنها في مادة هذا الاصل حسب الترتيب الهجائي المعروف ، مع مراعاة أول حرف من حروف هذا الاصل ، ثم الحرف الثاني ثم الحرف الثالث .

بيد أن هذا المعجم ، على جلالة قدره ، غير كاف ، لانه غير مستوعب لجميع مفردات اللغة . وسبب ذلك أنه ألف لغرض بلاغي ، وهو توضيح المعاني المجازية للألفاظ وتمييزها من المعاني الاصلية الحقيقية . فهو يكاد يقتصر على ذكر الالفاظ ذات الاستعمال المجازي ، اما الالفاظ التي لايتناولها المجاز فما اقل ما يذكرها . ولذا كان لابد

للمراجع في كثير من الاحيان من الاستعانة الى جانب **أساس البلاغة** بعض المعاجم الاخرى الواسعة .

ب — **لسان العرب** : هو اضخم معاجم الالفاظ العربية على الاطلاق يقع في عشرين جزءاً . وهو الى ان يكون موسوعة لغوية وأدبية أقرب منه الى ان يكون مجرد معجم لغوي ؛ وذلك نظراً الى وفرة ما يحويه من بحوث لغوية واستطرادات أدبية . يمتاز هذا المعجم بغزارة مادته واستيعابه لمعظم مفردات اللغة العربية . وهو يمتاز أيضاً بكثرة التفصيل وايراد الوجوه واللغات والروايات المختلفة . وهو يمتاز أخيراً بذكر المصادر التي يستمد منها ، وبالاكثار من ايراد الشواهد الشعرية والنثرية التي يحتج بها .

وهذا المعجم مرتب كما أشرنا سابقاً على طريقة الجوهري في **الصحاح** ومراجعته سهلة ؛ بيد أن المبتدىء يلاقي في الرجوع إليه أول الامر بعض المصاعب ، وذلك لكثرة اجزاء هذا المعجم من جهة ، ولغزارة مادته من جهة ثانية ؛ إذ كثيراً ما يستغرق الكلام على الاصل اللغوي الواحد ومشتقاته عدة صفحات . ولكن الممارسة المستمرة كفيلة بأن تجعل المراجع يعثر فيه على مبتغاه بسهولة وبوقت قصير .

ج — **القاموس المحيط** : هذا المعجم هو أصغر حجماً وأشد اختصاراً من لسان العرب ، ولكنه مكثف المادة جداً . فالمراجعة فيه ، ولاسيما للمبتدىء ، تحتاج الى تدبر وانتباه شديدين . وسبب ذلك ان هذا

المعجم على صغر حجمه يجمع في أجزائه الاربعة معظم مفردات اللغة التي ذكرها اللسان في اجزائه العشرين ؛ بل ربما ذكر ألفاظاً لانجدها في اللسان . وقد عمد المجد الفيروزابادي الى طريقة خاصة في التأليف استطاع معها ان يجمع مثل هذه المادة الغزيرة في مثل هذا العدد القليل من الاجزاء . فهو من جهة قد اكتفى ببيان معاني الالفاظ مجردة عن الشواهد والنصوص ، ومن جهة ثانية أكثر من استعمال بعض الحروف رموزاً أثناء الشرح بدلاً من بعض الكلمات التي يكثر تكرارها ، فاستعمل م بدلاً من معروف ، وع بدلاً من موضع ، وج بدلاً من جمع وجج بدلاً من جمع الجمع ، و ه بدلاً من قرية و د بدلاً من بلد .

وهنالك خصائص أخرى للقاموس يراها المراجع مذكورة في المقدمة ، منها أنه لايضبط عين المضارع المفتوحة ، ويكتفي بضبطها في حالي الضم والكسر . ومنها أنه يقدم المشهور الفصيح أولاً ثم يتبعه باللغات الاخرى ، كما يقدم المقيس على غيره غالباً في المصادر وفي الجموع ، ومنها عنايته البالغة بضبط أعلام الأناسي والبلدان حتى أصبح في هذا الباب من اوثق المراجع ، الى غير ذلك من الخصائص والمصطلحات التي يتعرفها المراجع شيئاً فشيئاً .

ولعل كثافة هذا المعجم ولغته الرمزية الاصطلاحية من الاسباب التي حملت المرتضى الزبيدي أحد علماء اللغة في القرن الهجري

الثاني عشر [1] على شرح هذا المعجم وتزويده بالشواهد الكثيرة وذكر بعض المستدركات عليه، وذلك في معجمه المشهور **تاج العروس** [2] الذي هو كنز من كنوز اللغة العربية لا يقل من حيث ضخامته وغناه عن لسان العرب.

بعض ملاحظات عامة على هذه المعاجم

واذا كان لنا ما نلاحظه على هذه المعاجم العربية الهامة ولاسيما على الثلاثة الاخيرة منها : **اللسان والقاموس والتاج** ، فهو أنها على سعة انتشارها وشدة الحاجة اليها ماتزال من حيث شكلها بعيدة عن مقتضيات العصر وما تتطلبه وسائل البحث الحديثة من سهولة ووضوح وقرب مأخذ. ولعل الناشرين يحسنون صنعاً لو فكروا باعادة نشر هذه المعاجم نشراً حديثاً يقرب مأخذها دون أن يمس جوهرها بأذى، وذلك خدمة لطلاب اللغة العربية من عرب وغير عرب وتوفيراً للوقت وتشجيعاً لجمهور المثقفين على الاقبال عليها والرجوع اليها بصدر منشرح. فبدلاً من أن نرى الألفاظ المشتقة من أصل واحد تتوالى في المادة الواحدة

---

(١) هو محمد بن محمد الحسيني الزبيدي ، نسبة الى زَبيد (بفتح الزاي وكسر الباء) وهي بلدة في اليمن . من كبار المصنفين في اللغة . توفي في مصر سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) . من كتبه الهامة المطبوعة (شرح إحياء علوم الدين) للغزالي .

(٢) طبع (تاج العروس) في المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ في عشرة أجزاء .

بدون ترتيب يحسن أن تُميَّز هذه الألفاظ بعضها من بعض، كأن تكتب كل لفظةٍ منها بحرف خاص غير الحرف المستعمل في الشرح وتوضع في أول السطر ، مع بقائها ضمن المادة الواحدة .

وإذا كان للفظة من هذه الألفاظ عدة معان ، حَسُن أيضاً أن يفصَل بين هذه المعاني بفواصل واضحة ؛ وبذلك يسهل على المراجع أن يعثر على اللفظة التي يريدها وعلى المعنى الذي يبتغيه دون كبير عناء ومن غير إضاعة للوقت .

ومما يلاحظ على هذه المعاجم أيضاً - على رغم اتساعها وتعدّد أجزائها - نقصها . ذلك أنها تُعنى بإثبات الألفاظ القديمة بما فيها الغريب والموات، وتبذل جهداً عظيماً في استقصائها وتوضيح معانيها والاستشهاد عليها بالقرآن والحديث والشعر الذي يحتجّ به ، ولكنها تُهمل في الوقت ذاته كثيراً من الألفاظ والاستعمالات الجديدة التي تتردد في الشعر المحدث وفي المؤلفات العلمية والأدبية التي ظهرت في مختلف العصور العباسية . وهذا ما حدا بعض الباحثين على جمع الالفاظ التي لم يرد لها ذكر في معاجمنا القديمة ونشرها على حدة . ولعل المستشرق الهولندي **دوزي** أشهر من عُني بسدّ هذا النقص في معجمه الذي سمّاه **ملحق المعاجم العربية** ونشره في مدينة (ليدن) في مجلدين ضخمين في أوائل هذا القرن . ومن المفيد أن نثبت هنا بعض ما قاله هذا العالم المعروف في مقدمة معجمه المشار إليه :

« لقد كان واضعو المعاجم العربية شديدي التزمت راغبين عن كل ما لا يمت بصلة إلى لغة القرن الهجري الأول وما قبله ، واقفين في إثباتهم لمفردات اللغة عند ذلك الزمن الذي بدأ فيه العرب يحتلون مكانهم في دنيا الحضارة العالمية ويتقبلون كثيراً من الألفاظ الجديدة التي ترجع بأصولها الى اللغات الاجنبية كي يعبروا بها عن الاشياء والافكار الجديدة . نعم ، لقد وقف واضعو المعاجم العربية باللغة عند الزمن الذي سبق المصنفات العربية الكثيرة في الجغرافية والتاريخ وشتى العلوم ، تلك المؤلفات التي تهمنا في دراساتنا أكثر من أي شيء سواها . وما أشبه المستشرق الذي يريد دراسة الحضارة العربية معتمداً على هذه المعاجم بمن يريد أن يدرس الحضارة اليونانية وأن يفهم آثار توسيديد وديموستين وأفلاطون وهو لا يملك إلا معجماً للغة هوميروس »(١) .

ربما كان في كلام هذا العالم بعض الإسراف ، لأن القرآن الكريم قد أعان على ديمومة اللغة خلال العصور ، وساعد على استمرار كثير

---

(١) هوميروس هو أشهر شعراء اليونان في العصر القديم . واليه تنسب الملحمتان المعروفتان : الإلياذة والأوديسة . ويظن أنه عاش في القرن الثامن قبل الميلاد . اما توسيديد وديوستين وأفلاطون فأولهم مؤرخ والثاني خطيب والثالث فيلسوف . وثلاثتهم من كبار رجال الفكر اليونانيين الذين عاشوا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد .

من الأصول العربية القديمة في لغة آدابنا وعلومنا حتى اليوم ، وهي ظاهرة لم يعهد لها مثيل في لغة أخرى . ولكن أساس الفكرة يبقى صحيحاً من حيث نقص معاجمنا القديمة بسبب إهمالها كثيراً من الألفاظ والاستعمالات المستحدثة في أزهى عصور الحضارة العربية[1] .

وهناك ملاحظة أخيرة على هذه المعاجم . وهي أنها لا تعيننا على مسايرة التطوّر التاريخي للغتنا بشكل واضح . ذلك أن هذه المعاجم كما ذكرنا تقف بدافع التزمت اللغوي عند حد زمني معين فلا تتجاوزه إلى ذكر الألفاظ المولدة أو المعاني المستحدثة إلا قليلاً . وهي بهذا العمل تقطع سلسلة التطور في معاني الالفاظ قطعاً اعتباطياً . يضاف إلى هذا أن هذه المعاجم حين تشير إلى المعاني المختلفة للفظة من الالفاظ مؤيدةً إياها بالشواهد الكثيرة لا تحاول أن تضبط هذه المعاني بالضوابط الزمنية ، مع العلم أن المعاني المختلفة للفظة الواحدة كثيراً ما تكون نتيجة تطور تدريجي . ولو أن معاجمنا اصطبغت بالصبغة التاريخية لاستطعنا بفضلها أن نعرف متى ظهرت اللفظة على وجه التقريب ، ومتى أهملت ، ومتى بُعثت حية من جديد ، وفي أي عصرٍ

(١) هذا مع العلم أن علماء اللغة أفردوا للألفاظ الدخيلة كتباً خاصة بها ؛ ومن أشهر هذه الكتب ، (المعرّب) لموهوب بن احمد الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ هـ ، و (شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل) للشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ .

اكتسبت كلاً من معانيها المختلفة . ذلك أن اللغة كائن حيّ في تجدّد وتطور مستمرين . فمن المفردات ما يُهمل ثم ينام نومه الأبدي ، ومنها ما يهمل ثم يبعث حياً . كما أن هناك ألفاظاً ترفد اللغة من طرق شتى أجنبية ومحلية ، ومعاني جديدة تكتسبها الالفاظ القديمة . والمعجم لا يكون حياً إلا إذا كان صورة دقيقة لحيوية اللغة . ولذا كانت المعاجم لدى الامم في تجدد دائم ؛ حتى إن بعضها ليعاد طبعه بشكل دوري ، مذيلاً في كل طبعة بالحواشي والزيادات حتى لا يفوته من تطور اللغة شيء . أما المعجم الذي يقتصر على ذكر ألفاظ اللغة حتى عصر معين ، فقد يصلح لدراسة إحدى مراحل تاريخ تلك اللغة ، أو لفهم النصوص المكتوبة بتلك اللغة حتى ذلك العصر . ولكن لا يمكن بحال من الاحوال اعتباره معجماً حياً شاملاً لتلك اللغة .

وطالما شعر الدارسون للغة العربية ، عرباً وغير عرب ، بحاجتهم إلى معجم تاريخي شامل لهذه اللغة . وقد حاول أحد المستشرقين الالمان (فيشر Fisher) وضع مثل هذا المعجم فوافته منيته قبل أن يستطيع تنظيم المواد التي كان دائباً في جمعها . وقد نقلت هذه المواد من ثَمّ إلى **مجمع فؤاد الاول للغة العربية**[1] كي يستعين بها المجمع المشار إليه في تصنيف المعجم اللغوي التاريخي الذي يتهيأ لوضعه . إذ أن المادة الثانية

---

(١) هذا اسم المجمع حين إنشائه . وقد اصبح اسمه فيما بعد : مجمع مصر للغة العربية .

من مرسوم إنشاء هذا المجمع — وقد صدر هذا المرسوم عام ١٩٣٢ — تحتم عليه « أن يقوم بوضع معجم تاريخي اللغة العربية وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها » . ولعل هذا المجمع محقق لآمال محبي اللغة العربية ذات يوم .

ولكن مهما يكن خطر هذه الملاحظات التي أبديناها فإن هذه المعاجم تبقى كنزاً من أثمن كنوز العربية ومرجعاً لا غنى للباحث المتخصص عنه . ولا يجزىء عنه مرجع آخر .

***

الفصل الثاني

معاجم المعانى

سبق أن أشرنا الى ان معاجم المعاني ، بخلاف معـاجم الالفاظ ، تفيدنا مبدئياً في ايجاد لفظ لمعنى من المعاني يدور بخلدنا ولا ندري كيف نعبر عنه تعبيراً دقيقاً. وهي فائدة جليلة يقدرها حق قدرها كل من مارس الكتابة أو الشعر أو الخطابة أو الترجمة او البحث العلمي . فكثيراً مايقف الكاتب حائراً لا يدري كيف يعبر عن أحد المعاني أو المدركات الحسية . و كثيراً مايشعر هذا الكاتب بالحاجة الى لفظ يستعمله مرادفاً للفظ آخر سبق له أن استعمله ولا يريد تكراره. و كذلك المترجمون فما أكثر مايصطدمون في الآثار التي يترجمونها بألفاظ أجنبية يعسر عليهم لأول وهلة إيجاد مايقابلها . هذه العقبات وسواها يعرفها كل من مارس الكتابة لأنها تعترضه في عمله بين فترة وأخرى . وليس كمعاجم المعاني مايذللها ويهدي الى اللفظ المنشود .

وقد عُني اللغويون والادباء العرب منذ بدء عهد التدوين بالتصنيف

في هذا الباب . فوضعوا الرسائل المختصرة أولا ، ثم صنفوا عدداً من المعاجم التي تختلف من حيث الحجم والاستيعاب. فسدّوا بذلك حاجة الكاتب والباحث الى حدٍ كبير .

وسنحاول هنا ـــ شأننا في حديثنا عن معاجم الألفاظ ـــ بيان المراحل الاساسية التي مرت بها حركة التأليف في هذا الباب حتى انتهت الى وضع معاجم المعاني الجامعة .

المرحلة الاولى : ـــ وهي مرحلة تأليف الرسائل الصغيرة التى يستقل كل منها بألفاظ معنىً أو جنسٍ من أجناس النبات أو الحيوان مثل **كتاب المطر وكتاب اللبأ واللبن** لأبي زيد الأنصاري[١] ومثل **كتاب الخيل وكتاب الابل وكتاب الشاء وكتاب النخل والكرم** للأصمعي[٢] وغيرها كثير ، وقد سبق لنا ان تحدثنا عن هذه الرسائل وأوردنا نماذج منها في الفصل الأول من هذا الكتاب فراجعه هناك[٣] .

المرحلة الثانية : ـــ اما المرحلة الثانية فهي مرحلة تأليف كتب أوسع حجماً وموضوعاً من الرسائل السابقة ، كتبٍ جامعة لعدد كبير من الابواب والمعاني ، ولكنها لاتبلغ درجة المعاجم في استيعابها وشمولها .

---

(١) انظر ترجمته في ص ١٢ من هذا الكتاب .

(٢) « « « « ١٥ « «

(٣) انظر ص ١٩ — ٢١ من هذا الكتاب

وربما كان اللغوي المشهور يعقوب بن السكيت [1] أول من ألف في هذا الموضوع . فلابن السكيت كتاب معروف اسمه كتاب الالفاظ هو اقدم كتاب وصلنا في هذا الباب [2] وقد جعل ابن السكيت كتابه هذا في اكثر من مئة وخمسين باباً ، تناول في كل باب منها معنى من المعاني ذاكراً الالفاظ التي تستعمل في التعبير عن جميع أحوال هذا المعنى ودرجاته. وقد حاول المصنف ان يتناول في أبواب كتابه أهم اغراض الكلام مادية ومعنوية . فهناك أبواب الألفاظ الدالة على الطول والقصر والحسن والدمامة والهزال وغير أولئك من الصفات الجسمية ، كما ان هناك أبواباً للشح والغضب والكبر والذكاء والشجاعة والجبن والعقل والحمق والشره والكذب والطمع وما اشبهها من الصفات الخلقية . وهناك أبواب تتصل بالجوع والعطش والذم والمرض والسفر والاجتماع والتفرق والزواج وما الى ذلك

(١) ابو يوسف يعقوب بن اسحق المعروف بابن السكيت. لغوي مشهور توفي في بغداد في خلافة المتوكل سنة ٢٤٤ هـ . من كتبه المشهورة غير كتاب (الالفاظ) كتاب (إصلاح المنطق) طبع في مصر عام ١٩٤٩ . وله ايضاً كتاب (الأضداد) طبع مع عدد من كتب الاضداد المماثلة في بيروت عام ١٩١٣ بعناية المستشرق هفنر .

(٢) طبع هذا الكتاب طبعة مزودة بالفهارس والشروح القيمة ، وذلك في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٨٩٥ بعنوان (كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الالفاظ) .

من أفعالٍ واحوال انسانية ، وهناك أيضاً أبواب كثيرة تتصل بمظاهر الطبيعة من ليلٍ ونهار وشمسٍ ومياهٍ وأزمنة وبردٍ وحرٍ ، وأبواب أخرى تتصل بحوائج الانسان ومظاهره من ثياب وحلي وسلاح وطعام وشراب وآنية ... نعم ، إن ابن السكيت لم يبلغ بكتابه هذا من حيث الابواب مبلغ المعاجم التي ستؤلف فيما بعد ، كما أنه لم يصنف ابواب الكتاب تصنيفاً منطقياً بل جعلها تتابع دون ترتيب او فكرة موجهة. ولكنه على كل حال قد استطاع في مصنفه هذا أن يمضي بتأليف معاجم المعاني خطوةً كبيرة الى الأمام .

ولعله من المستحسن أن نثبت فيما يلي بعض النماذج نقتبسها من هذا الكتاب كي نستدل بها على الطريقة التي اتبعها المؤلف في تصنيفه .

قال ابن السكيت في **باب الغضب والحدة والعداوة** ، وهو الباب العاشر من الكتاب[١] :

« الأصمعي : يقال : لقد ضَمِدَ عليه يضمد ضمداً اذا غضب . قال النابغة الذبياني :

ومن عصاك فعاقبه معاقبةً   تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد[٢]

قال : وقد حرِدَ حرداً ، وحرِبَ حرَباً اذا هاج وغضب .

---

(١) انظر ص ٧٨ من كتاب الالفاظ لابن السكيت وما بعدها .

(٢) البيت من دالية النابغة المعلقة في مخاطبة النعمان بن المنذر، ومعنى قوله (ولا تقعد على ضَمَد) أي لاتقعد مغتاظاً ففي قدرتك معاقبة من عصاك .

وحرَّبته فحرِب ، وحرَّشته وهيجته . قال الهذلي :

كأن محرَّباً من أسد ترجٍ ينازلهم ، لنابيه قبيبُ[١]

قال : ويقال : أغدَّ عليه إغداداً ـ وأصله من غدَّة البعير ـ وهو مُغدّ ومُسمغدّ اذا انتفخ من الغضب . ووَرِمَ وضرِمَ ضرَماً واحتدم عليه إذا تحرَّق عليه . وأصله من احتدام الحرّ . ويقال : إنه لينفط غضباً ويقال : قد ازْماكّ أي غضب . وقد اضفأدّ اضفئداداً اذا انتفخ من الغضب . ويقال : هو ينغر عليه ، اذا غلى عليه من الغضب . ويقال : قد تنغر . وانما أخذ من نَغران القدر وهو غليها . ويقال : قد شريَ ، وهو أن يتمادى ويتتابع في غضبه . ويقال : شريَ البرقُ ، وهو يشرى اذا كثر لمعانه . قال طرفة :

يا من رأى البرق يشرى في ملمعةٍ

كالنار أذكى لها المستوقدُ السعفا[٢]

... وهكذا إلى آخر ما جاء في هذا الباب »

وهذا بعض ما ذكره ابن السكيت في **باب الفقر والجدب** ، وهو الباب الثاني من الكتاب[٣] :

---

(١) المحرّب : الغضبان . وترج : موضع كثير الاسد . والقبيب هنا الصوت الذي يصدر عن الانياب اذا حك بعضها على بعض .

(٢) الملمّعة : السحابة تلمع بالبرق . والسعف : اغصان النخل اليابسة .

(٣) انظر ص ١٥ من كتاب الالفاظ لابن السكيت وما بعدها .

« قال يونس : الفقير يكون له بعض ما يقيمه ، والمسكين الذي لا شيء له . قال الراعي :

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفقَ العيالِ فلم يترك له سبدُ[١]

قال : وقلت لاعرابي : أفقير أنت أم مسكين ؟ فقال : لا والله ، بل مسكين ، قال أبو زيد : ومنهم المقتر وهو المحوِج والمقلّ ، وهو الإقتار والإقلال والإحواج ، وهو شيء واحد وهو من الفقر ، وفيهنّ بقية من نشبٍ لا يغمره ولا يغمر عياله . ويقال للمقتر : إن به لخصاصة . والمخلّ مثل المقتر . يقال : أخلّ يُخلّ إخلالاً ، والاسم الخلة . والمعوز قريب من المخل وهو أسوأهما حالاً ، يقال : أعوز يُعوز إعوازاً ، والاسم العوَز . ويقال في الفاقة ؛ إنه لمفتاق ، وانه لذو فاقةٍ . وفي الحاجة : إنه لمحتاج ، وإنه لذو حاجة وانه لمسكين ، (وليس فيها فعل ، وحكى الفرّاء : هو يتمسكن لربه) . ومنهم المعدِم ، يقال : أعدَم يعدم إعداماً ، الاسم العُدْمُ . ومنهم الصعلوك وهو الذي ليس له شيء ، (وليس فيها فعل . وحكى غيره : تصعلك) ويقال : إن به لفاقةً وإنه لذو فاقة ،وان به لخصاصة ، وانه لذو خصاصة ومنهم السبروت ، وهو مثل الصعلوك ، وامرأة سبروتة ...

---

(١) الحلوبة : التي تُحتلب ، وفق العيال : كافية للعيال ، لم يترك له سبَد : لم يترك له شيء . والبيت من قصيدة يشكو بها الراعي الى عبد الملك بن مروان ظلم السعاة على الصدقات ، وانهم لم يتركوا للفقير شيئاً.

ابو زيد : ومنهم الفقير المدقع وهو الذي لا يتكرّم عن شيء أخذه وإن قلّ . وأدقع فلان إلى فلان في الشتيمة وفي أي فعل ما كان . وأدقع له . قال الاصمعي : المدقع الذي لصق بالدقعاء وهي التراب . ابو زيد : ومنهم القانع وهو الذي يتعرّض لما في أيدي الناس . يقال : قد قَنَع فلان الى فلان قنوعاً ، وهو ذم ، وهو الطمع حيث كان . الاصمعي : القانع السائل والقنوع المسألة . قال الشماخ :

لمالُ المرء يصلحه فيغني مفاقِره أعف من القنوع [1]

.... وهكذا إلى آخر هذا الكتاب » .

تتضح من هذه النماذج القليلة التي أثبتناها خصائص طريقة ابن السكيت في كتابه هذا . فهو يحاول في كل باب يعقده لمعنىً من المعاني أن يستقصي جميع الالفاظ التي تستعمل في ذلك المعنى . وهو في هذا الاستقصاء يأتي على كثير من الالفاظ المتداولة المأنوسة ، كما يذكر كثيراً من الغريب والمهجور . ومما يستحق الثناء أيضاً عناية المصنف بذكر مصادره فهو يكثر من الاشارة الى العلماء الذين ينقل عنهم كالأصمعي وأبي زيد ويونس بن حبيب وغيرهم . كما أن حرصه على الاستشهاد لمعاني الالفاظ التي يذكرها بالشعر الجيد الموثوق أمر جدير بالثناء أيضاً . وإن كان لنا ما نأخذه عليه فهو أن شروحه وتفاسيره

---

(١) المقصود باصلاح المال الاقتصاد وترك الاسراف . والمفاقر : الفقر .

تبقى في كثير من الاحيان غير كافية لبيان الفروق بين المترادفات التي يوردها .

والكتاب الثاني الذي يستحق الذكر في هذا الباب هو **الالفاظ الكتابية** لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني [1] . وهو كتاب من كتب المعاني لطيف مختصر يمثل كسابقه هذه المرحلة الثانية من مراحل حركة تأليف معاجم المعاني .

وقد حذا الهمذاني حذو ابن السكيت في تقسيم كتابه الى ابواب كثيرة العدد يختص كل منها بمعنى من المعاني . والموضوعات في الكتابين تكاد تكون متقاربة من حيث العدد والغرض . والفارق الرئيسي بين الكتابين أن الهمذاني لم يعن بالمفردات واستقصائها كما فعل ابن السكيت ، بل كان همه في التراكيب والعبارات . فقد اختار جل مادة كتابه مما يرد على اقلام الكتاب المشهورين من عبارات جميلة وازدواجات بارعة. وغايته من ذلك خدمة الكتاب الناشئين وتزويدهم بما يحتاجون إليه في صناعتهم من مختارات جيدة تتصل بمعظم أغراض الكلام . ومن هنا كان عنوان الكتاب : **الالفاظ الكتابية** ، إذ أنه

---

(١) اديب ولغوي توفي نحو سنة ٣٢٠ هـ . وقد طبع كتابه (الالفاظ الكتابية) عدة طبعات أجودها طبعة بيروت عام ١٨٨٥ بعناية لويس شيخو . وتمتاز هذه الطبعة بمفتاح للكتاب مرتب على حروف المعجم في نحو اربعين صفحة يستدل به الطالب على مواطن العبارات والالفاظ التي ينشدها .

من الكتّاب وإليهم . وقد صرَّح الهمذاني بغرضه هذا في مقدمة كتابه التي يقول فيها :

« الكتابة من أعلى الصناعات وأكرمها وأسمقها بأصحابها إلى معالي الأمور وشرائف الرتب ، فهم بين سيّد ومدبّر سيادة . وملك وسائس دولة ومملكة . وبلغت بقوم منهم منزلةَ الخلافة وأعطتهم أزمّة الملك . والمتصرّفون فيها في الحظّ منها بين متعلقٍ بالسّماكِ مضاءً ونفاذاً ، وبين متنكّس في الحضيض نقصاً وتخلفاً ... ووجدت من المتأخرين في الآلة قوماً أخطأهم الاتساع في الكلام ، فهم متعلقون في مخاطباتهم وكتبهم باللفظة الغريبة والحرف الشاذ ليتميزوا بذلك من العامة ويرتفعوا عند الأغبياء عن طبقة الحشو . والخَرَس والبكم أحسن من النطق في هذا المذهب الذي تذهب إليه هذه الطائفة في الخطاب... فجمعت في كتابي هذا لجميع الطبقات أجناساً من ألفاظ كتاب الرسائل والدواوين البعيدة من الاشتباه والالتباس ، السليمة من التقعير ، المحمولة على الاستعارة والتلويح ، على مذاهب الكتّاب وأهل الخَطابة ، دون مذاهب المتشدقين والمتفاصحين من المتأدبين والمؤدّبين المتكلفين ، البعيدةِ المرام على قربها من الأفهام ، في كل فن من فنون المخاطبات ، ملتقطة من كتب الرسائل وأفواه الرجال وعَرَصات الدواوين ومحافل الرؤساء ، ومتخيَّرة من بطون الدفاتر ومصنفات العلماء .

فليست لفظة منها إلا وهي تنوب عن أختها في موضعها من المكاتبة أو تقوم مقامها في المحاورة إما بمشاكلة أو بمجانسة أو بمجاورة . فإذا عرفها العارف بها وبأماكنها التي توضع فيها كانت له مادة قوية وعوناً وظهيراً ... إلخ »

ويظهر أن هذا الكتاب قد أصاب الغرض الذي كان يرمي به إليه مؤلفه ، فتلقفته أيدي الكتاب الناشئين وأفادوا منه في صناعتهم فائدة جلىً مما جعل كاتب البويهيين ووزيرهم المشهور الصاحب بن عباد يقول : « لو أدركت عبد الرحمن بن عيسى مصنف كتاب الألفاظ لأمرت بقطع يده . » فسئل عن السبب فقال : « جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة . ».

ولنثبت فيما يلي نموذجاً نختاره من هذا الكتاب ليدرك القارىء الفارق الذي أشرنا إليه بينه وبين سابقه .

قال الهمذاني في الباب الأول من كتابه بمعنى : أصلح الفاسد .

« تقول : لمَّ فلان الشعث ، وضم النشر ، ورمَّ الرث، وسدَّ الثغر ورقع الخرق ، ورتق الفتق ، وأصلح الفاسد ، وأصلح الخلل ،وجمع الشتات ، وجبر الوهن والوهي جميعاً . (يقال : جبرت الكسر جبراً وأجبرت فلاناً على الامر إجباراً) ويقال : أسا الكلم (مقصور) يأسوه أسواً ، وأسي على مصيبته أي حزن يأسى أسي ..ويقال :شعب

الصدع ، ورأب الصدع ، ورأب الثأي [١] رأباً (أخذ من الرؤبة ، وهي قطعة من خشب تدخل في الجفنة إذا انكسرت تصلح بها ؛ قال كعب بن مالك الانصاري [٢] :

طعنا طعنة حمراء فيهم حرام رأبها حتى الممات .

ويقال : شعبت الامر إذا أصلحته وشعبته إذا أفسدته أيضاً ،وهذا من الاضداد ، والشعوب المنية لأنها تشعب أي تفرق . وفي المثل : إنّ دواء الشق أن تحوصه ، أي تخيطه،وسدّ الثلمة ، وأقام الأودوسد الفرج والخلل ، وأقام الصعر ولأم الصدع .والوصم والخلل والفساد والفتق واحد ، ويقال : أخاف وقوع الوصم في هذا الأمر . وقوّم الميل وثقف الأود والعوج ، وداوى السقم ، وداوى الأدواء وحسم الداء وسوى الزيغ .والميل فيما كان خلقة فيقال : في عنقه ميل .والميل فعلك ، وميلك إلى الشيء . واذا زدت في اللفظ قلت : رأب متباين الصدع وضمّ متفرق النشر .... الخ »

نتبين بسهولة من هذا النص أن الفكرة التي كانت توجه الهمذاني في كتابه هذا هي غير تلك التي كانت توجه سلفه ابن السكيت في كتابه الذي مرّ ذكره . فعمل الهمذاني في (الألفاظ الكتابية) قائم

---

(١) الثأي وزان السعي؛ والثأى وزان الثرى كلاهما بمعنى الفساد والصدع .

(٢) هو صحابي جليل ومن اكابر شعراء الاسلام الاولين. توفي سنة ٥٥ﻫ.

على الانتقاء . فهو يصطفي العبارات التي تعوّد الكتّاب استعمالها ويثبتها مترادفة في كل باب من أبواب كتابه . أما الألفاظ المفردة فما أقل مايعنى بذكرها . وهو في عمله هذا أديب بيّن الذوق ، لاتكادتلمح بين مختاراته لفظة مهجورة أو تعبيراً غريباً. على عكس ابن السكيت الذي كان في مصنفه لغوياً معجمياً قبل كل شيء ، فعمله قائم على الاستقصاء والاستيعاب ، وهو يثبت كل لفظة بالمعنى المراد حتى ولو كانت مهجورة أو نابية .

والكتاب الثالث والأخير الذي نذكره مثالاً لما ألف من الكتب في هذه المرحلة هو كتاب **الألفاظ** او **جواهر الألفاظ** لمؤلفه قدامة ابن جعفر (١) .

ألف قدامة كتابه هذا بعد أن ألف الهمذاني كتابه **الألفاظ الكتابية** الذي تحدثنا عنه ويظهر أن كتاب الهمذاني لم يرق في عين قدامة كثيراً. ذلك أن قدامة شديد الولوع بالبديع . وولوعه هذا واضح غاية الوضوح في كتابه المشهور **نقد الشعر** الذي عني فيه بذكر عدد كبير من

---

(١) هو ابو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي كاتب وناقد واديب مشهور . كان نصرانياً وأسلم على يد المكتفي بالله العباسي ، وتوفي بعد سنة ٣٢٠ هـ . من كتبه المطبوعة كتاب (الخراج) وكتاب (نقد الشعر) . اما كتابه (جواهر الالفاظ) فقد طبع عام ١٩٣٢ في مصر بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد .

المحسنات اللفظية والمعنوية التي لم يذكرها قبله أحد . وكتاب الهمذاني على غناه بالتراكيب الجميلة ، لا يشبع نهم الكاتب البديعي المغرم قبل كل شيء بالازدواجات والأسجاع. وقد أشار قدامة بن جعفر بصراحة الى هذا في مقدمة كتابه معتبراً إياه نقصاً ، وذلك حين يقول :

« هذا كتاب يشتمل على ألفاظ مختلفة تدل على معان متفقة مؤتلفة وأبواب موضونة ، بحروف مسجعة مكنونة ، متقاربة الاوزان والمباني ، متناسبة الوجوه والمعاني ، تونق أبصار الناظرين وتروق بصائر المتوسمين . وتتسع بها مذاهب الخطاب ، وتنفسح معها بلاغة الكتاب . لان مؤلف الكلام البليغ الفصيح ، واللفظ المسجع الصحيح ، كناظم الجوهر المرصع ، ومركب العقد الموشع : يعد أكثر أصنافه ، ليسهل عليه اتقان رصفه وائتلافه وقد ألف للألفاظ غير كتاب ، فقيل : أصلح الفاسد ، وضم النشر ، وسد الثلم ، وأسا الكلم[1]. فوزن (أصلح الفاسد) مخالف لوزن (ضم النشر) وكذلك (سدّ) و (أسا) . ولو قيل : أصلح الفاسد وألف الشارد وسدد العاند ، وأصلح ما فسد وقوم الاود ، أو قيل : صلح فاسده ورجع شارده ، لكان في استقامة الوزن واتساق السجع عوض من تباين اللفظ »[2] .

---

(١) الاشارة هنا واضحة الى كتاب (الالفاظ الكتابية) فهذه العبارات وردت في اول باب من ابوابه .

(٢) انظر جواهر الالفاظ ص ٢—٣ .

وعلى هذا الاساس من العناية بالسجع والتوازن بنى قدامة كتابه الضخم ، فرصف العبارات المترادفة جنباً إلى جنب مسجوعة متوازية. ولا شك أن كتاب القرن الرابع والعصور التالية وجدوا في هذا الكتاب معيناً لا ينضب لفنهم المتكلف ، ومادة تؤمن لهم مايحتاجون اليه من ازدواج في التعبير ، ذلك الازدواج الذي كان ركناً من أركان الكتابة آنذاك .

ولا بأس أن نذكر هنا على سبيل الموازنة ما أورده قدامة في الباب الأول من كتابه بمعنى **أصلح الفاسد** ، بعد ان أوردنا ما ذكره الهمذاني في هذا المعنى ، وبذلك ينفسح أمام القارىء باب المقارنة بين الكتابين ، قال قدامة :

« يقال : أصلح الفاسد ، وحصد المعاند ، وأقام المائد ، وقوّم الحائد ، ورد الشارد . ولم الشعث ، وكف الحدث ، ورم ماشذّ وانتكث . وضم النشر ، وجانب الشر والاشر . ورم الرث ، ووصل ماقطع واجتث . وجمع الشتات ، وهجر الظلم والاعنات . وأعاد المنهدم ، وداوى السقم ، وأسا الكلم . ورتق الفتق ، ورقع الوهيَ والخرق . وشعب الصدعَ ، ورأبَ القطع . ورأب الثأيَ ، ورتق الوهيَ . وحاصَ الشقّ ، وألحم الفتق . وسد الثلمة ، وكشف الغمة : وسد الفرج ، وسكن الرّهج . وأقام الاود ، وطمس الكفر والعند . وسد الخلل ، ورد الخجل ، وثقف الخطل ، وعدل الميل ، ونفى

الوَجل . وأقام الصعر والصور ، وثقف الزيغ والزور .. الخ[١] » .

وواضح بعد هذا أننا قد ابتعدنا في مثل هذه النصوص المزخرفة عن الفكرة المعجمية . فالشروح لاوجود لها ، وليس هنالك بيان لما بين معاني هذه المترادفات من فروق . واذا كان في رصف العبارات على هذا النمط فائدة وخدمة للكتّاب حين كانت صناعتهم قائمة على أصول من الزينة والمهارة اللفظية ، فإن هذه الفائدة تتضاءل في عصرنا بعد أن أصبح فن الكتابة قائماً على مسايرة الفكرة ، والاقتصاد كل الاقتصاد في الزخرف ، والعناية كل العناية في دقة التعبير .

وليس من شك بعد هذا في أن **كتاب الالفاظ** لابن السكيت — على سبقه للكتب الأخرى — يبقى في نظرنا أجدى الكتب الثلاثة التي ذكرناها ، وأحفلها بالفائدة لبني أزماننا ، وأقربها إلى فكرة المعجم .

المرحلة الثالثة . — أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي المرحلة الختامية ، أي مرحلة تأليف معاجم المعاني حقاً . ذلك أن الكتب الثلاثة التي ذكرناها أثناء كلامنا على المرحلة السابقة ، على رغم تعدّد أبوابها ، لايمكن اعتبارها معاجم حقيقية ، فهي بعيدة عن الاستيعاب والشمول من جهة ، كما أنها من جهة ثانية لم يلتزم في تصنيفها وتنسيق أبوابها نظام معين ، وهاتان الصفتان : الشمول والترتيب شرطان ملازمان لفكرة المعجم .

أما كتب المعاني التي ألفت في المرحلة الثالثة فقد استطاعت تحقيق

---

(١) انظر جواهر الألفاظ ، ص ٨ .

هذين الشرطين الى حد كبير ، فخطت بذلك حركة تأليف المعاجم خطوتها الأخيرة في طريق النمو الطبيعي وبلغت غايتها من التكامل والنضج .

وأشهر الكتب التي تمثل في نظرنا هذه المرحلة تمثيلاً صحيحاً اثنان هما : **فقه اللغة** للثعالبي[1] ، **والمخصص** لابن سيده الأندلسي[2] . وقد ظهر أولهما في أواخر القرن الهجري الرابع وثانيهما خلال النصف الاول من القرن الخامس . وسنتحدث عن كل منهما حديثاً موجزاً فيما يلي :

فقه اللغة . — استقى الثعالبي مادة كتابه - كما ذكر في مقدمته - من كتب أئمة اللغة أمثال الخليل ، والاصمعي وابى عمرو الشيباني والكسائي والفراء وأبي زيد وأبي عبيدة وابن الاعرابي والنضر بن شميل وابن دريد وابن خالويه والازهري وغيرهم. فجاء كتابه بعد جهد طويل جامعاً وافياً .

يمتاز **فقه اللغة** أولاً بحسن ترتيبه . فهو مقسوم الى ثلاثين باباً

---

(١) هو ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري ، ولد في منتصف القرن الهجري الرابع وتوفي سنة ٤٢٩ ﻫ . يعد من اشهر ادباء زمانه . من اذيع تصانيفه صيتاً كتاب (يتيمة الدهر) الذي أرخ فيه لشعراء عصره وجمع فيه نخبة صالحة من اشعارهم . اما كتابه (فقه اللغة وسرالعربية) فمعروف كثير التداول ، طبع حتى اليوم في مصر وفي لبنان عدة طبعات .

(٢) سبقت ترجمة ابن سيده في هذا الكتاب ص ٢٥ حاشية ٢. اما كتابه (المخصص) فقد طبع في المطبعة الاميرية بمصر في ١٧ جزءاً بين عامي ١٣١٦-١٣٢١ﻫ .

كبيراً ، كل منها يتناول معنى من المعاني الاساسية . وكل باب مقسوم بدوره الى عدد من الفصول الصغيرة يجمع كل منها الالفاظ المستعملة في التعبير عن فرع من فروع المعنى الاصلي الذي عقد عليه الباب كله . فالباب العشرون من الكتاب مثلاً موضوعه الاصوات وحكاياتها . ويضم هذا الباب ثلاثة وعشرين فصلاً ينطوي كل منها على الالفاظ المستعملة في التعبير عن نوع معين من الاصوات : ففصل في الاصوات الخفية ، وفصل في الاصوات الشديدة ، وفصل في أصوات النائم ، وفصل في أصوات الخيل ، وفصل في أصوات السباع ، والوحوش ، والطيور ، والحشرات ، والماء والنار ... الخ . والباب الرابع عشر من الكتاب موضوعه أعمار الناس والدواب . ويضم هذا الباب سبعة عشر فصلاً يتناول كل منها شعبة من شعب الموضوع الاساسي : ففصل في ترتيب سن الغلام ، وآخر في ظهور الشيب ، وثالث في الشيخوخة والكبر ، وفصل في ترتيب سن المرأة ، وفصل في اسماء صغار مختلف الحيوانات ، وفصل في ترتيب سن كل من البعير والفرس والبقرة الوحشية والشاة والعنز والظبي ... الخ وليس من شك في أن هذا الترتيب يسهل الى حد كبير الرجوع الى الكتاب والافادة منه .

ويمتاز **فقه اللغة** أيضاً من كثير من كتب المعاني التي سبقته بأنه ككتاب ابن السكيت ، يوجه عنايته الى إيراد الالفاظ المفردة لا

الى التراكيب المنتقاة ، وبأنه يبذل وسعه في سبيل تحديد مدلولات هذه الالفاظ وبيان ما بينها من فروق .

وهذه أمثلة من الكتاب توضح مزاياه التي أشرنا اليها :

جاء في الفصل الثالث عشر من الباب الخامس عشر **في تفصيل كيفية النظر وهيئاته في اختلاف أحواله**[(1)] :

« إذا نظر الانسان الى الشيء بمجامع عينه قيل : **رمقه** . فإن نظر اليه من جانب أذنه قيل : **لحظه** . فإن نظر اليه بعجلة قيل : **لمحه** . فإن رماه ببصره مع حِدّة نظر قيل : **حدجه** بطرفه ، (وفي حديث ابن مسعود : حدث القوم ماحدجوك بأبصارهم) . فإن نظر إليه بشدة وحدّة قيل : **أرشقه وأسف** النظر إليه . فإن نظر إليه نظر المتعجب منه والكاره له والمبغض إياه قيل : **شفنه** وشفن إليه شفوناً وشفناً . فإن أعاره لحظ العداوة قيل : نظر اليه **شزراً** . فان نظر إليه بعين المحبة قيل : نظر إليه **نظرة ذي علق**[(2)] . فإن نظر إليه نظر المستثبت قيل : **توضحه** . فإن نظر واضعاً يده على حاجبه مستظلاً بها من الشمس ليستبين المنظور إليه قيل : **استكفه** ، **واستوضحه واستشرفه** . فإن نشر الثوب ورفعه

---

(١) انظر ص٩٧ فما يلي من كتاب فقه اللغة ، طبعة بيروت سنة ١٩٠٣ .

(٢) أي : ذي علاقة وهي الهوى .

لينظر الى صفاقته[١] أو سخافته[٢] ويرى عوارا[٣] إن كان به قيل : استشف . فان نظر الى الشيء كاللمحة ثم خفي عنه قيل : لاح لوحةً ، كما قال الشاعر : « وهل تنفعَنّي لوحة لو ألوحها ؟ » فإن نظر الى جميع ما في المكان حتى يعرفه قيل : نفض نفضاً ، فان نظر في كتاب أو حساب ليهذبه ويستكشف صحته وسقمه قيل تصفح . فان فتح جميع عينيه لشدة النظر قيل : حدق . فان لألأهما قيل : برق . فان انقلب حملاق[٤] عينيه قيل : حملق . فان غاب سواد عينيه من الفزع قيل : برق بصره . فان فتح عين مفزَع أو مهدَّد قيل : حمج . فان بالغ في فتحها وأحدَّ النظر عند الخوف قيل : حدج . فان كسر عينه في النظر قيل : دنقش وطرفش (عن أبي عمرو)[٥] . فان فتح عينيه وجعل لا يطرِف قيل : شخص (وفي القرآن : فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا[٦]) . فإن أدام النظر مع سكون قيل : أسجد (عن أبي عمرو) . فان نظر

(١) أي : متانته وكثافة نسجه .

(٢) أي : رقة نسجه .

(٣) العوار ـ بفتح العين وضمها ـ خرق أو شق في الثوب أو عيب فيه .

(٤) اختلف في معنى الحملاق فقيل هو ماتغطيه الجفون من بياض العين ، وقيل بل هو باطن الاجفان .

(٥) أي : أبي عمرو اسحاق بن مرار الشيباني وهو راوية ولغوي مشهور توفي سنة ٢١٣ هـ .

(٦) سورة الأنبياء ، الآية : ٩٨ .

الى أفق الهلال لليلته ليراه قيل : تبصره . فان أتبع الشيء بصره قيل : أتأره البصرَ وأتأره إياه . » اهـ .

وجاء في الفصل الخامس والعشرين من الباب التاسع عشر في تفصيل الطيران وأشكاله وهيئاته :(١)

« واذا حرك الطائر جناحيه ورجلاه في الارض قيل : رفّ ، فاذا طار قريباً على وجه الارض قيل : أسفَّ . فاذا كان مقصوصاً وطار كأنه يردّ جناحيه الى ما خلفه قيل : جدف (ومنه سمي مجداف السفينة) فاذا حرّك جناحيه في طيرانه قريباً من الارض وحام حول الشيء يريد أن يقع عليه قيل : رفرف ، فاذا بسط جناحيه في الهواء وسكنهما فلم يحركهما كما تفعل الحدأ والرَّخم(٢) قيل : صفَّ (وفي القرآن : والطيرُ صافّاتٍ)(٣). فاذا ترامى بنفسه في الطيران قيل : زفَّ زفيفاً ، فاذا انحدر من بلاد البرد الى بلاد الحرّ قيل : قطع قطوعاً وقَطاعاً . يقال : كان ذلك عند قطاع الطير » .

هذه الامثلة التي أوردناها توضح ما سبق أن أشرنا اليه من مزايا فقه اللغة . فليس هم الثعالبي إيراد المفردات في كل فصل من فصول كتابه

---

(١) انظر : فقه اللغة ، ص : ١٩٢ .

(٢) الحدأ جمع حدأة وهي طائر معروف من الجوارح نسميه (الشوحة) والرخم جمع رَخمة وهي أيضاً من أنواع الجوارح .

(٣) سورة النور ، الآية : ٤٢ .

على أنها مترادفات ليست لفظة منها الا وهي تنوب عن اختها في موضعها من المكاتبة أو تقوم مقامها في المحاورة ، كما يقول الهمذاني في مقدمة الألفاظ الكتابية ، بل هو كما قلنا يحاول جهده أن يحدد مدلول كل لفظة وموطن استعمالها ، والفرق بينها وبين ما يمكن اعتباره مرادفاً لها .

ولا شك في أن مثل هذا الكتاب الثمين لا يمكن أن يصدر إلا عمن فقه اللغة العربية تمام الفقه وتمثلها أكمل تمثل . وهو من جهة ثانية يظهرنا على ما تمتاز به اللغة العربية في كثير من المعاني من قدرة على التعبير الواضح وملاحظة للفروق الدقيقة بين المفاهيم المتقاربة ، تلك الفروق التي كثيراً ما تقف اللغات الاخرى حائرة دون التعبير عنها[1] .

المخصص . ـــ أما كتاب **المخصص** لابن سيده الاندلسي فهو أضخم معجم للمعاني تعرفه المكتبة العربية ، نثر فيه المؤلف كل ما ألف قبله من رسائل ومعاجم . وقد أشار الى ذلك في مقدّمة الكتاب حين عدّد مصادره فقال : « فأما ما نثرت عليه من الكتب فالمصنف في غريب

---

(١) لايفوتنا أن نذكر هنا أن الثعالبي ألحق بكتابه هذا عدة فصول تساعد الدارس على فقه طرائق التعبير في العربية . كالحديث عن التقديم والتأخير ، والتخصيص والتعميم ، وإجراء مالايعقل مجرى العاقل ، وإقامة الواحد مقام الجمع وبالعكس ... وغير أولئك من مجاري كلام العرب وسننها . ولقد أطلق المؤلف على هذا القسم الثاني من كتابه اسم (سرّ العربية) . ولهذا كان العنوان الكامل للكتاب : (فقه اللغة وسرّ العربية) .

الحديث لأبي عبيد[١] ، وجميع كتب يعقوب[٢] كالاصلاح والالفاظ . وكتابا ثعلب[٣] الفصيح والنوادر ، وكتابا أبي حنيفة[٤] في الانواء والنبات . وغير ذلك من كتب الفرّاء[٥] والاصمعي[٦] وأبي زيد[٧] وأبي حاتم[٨] والمبرّد[٩] وكراع[١٠] والنضر[١١] وابن الاعرابي[١٢] واللحياني[١٣] وابن قتيبة[١٤] وما سقط إليَّ من ذلك . وأما من الكتب

---

(١) هو أبو عبيد القاسم بن سلام ، من شيوخ الحديث والفقه واللغة، ولد في هراة سنة ١٥٧ ﻫ، وولي قضاء طرطوس ، ورحل الى مصر وبغداد، وحج فتوفي في مكة سنة ٢٢٤ﻫ. وكتابه في (غريب الحديث) من أجل ما وضع في بابه.

(٢) هو ابن السكيت وقد سبقت ترجمته في ص ٤٩، حاشية ١ .

(٣) هو أحمد بن يحيى الشيباني، الملقب بثعلب ، امام الكوفة في اللغة والنحو في عصره توفي ببغداد سنة ٢٩١ ﻫ. طبع كتابه (الفصيح) في اوربا ثم في مصر . ولا يعرف لثعلب كتاب باسم النوادر . ولعل ابن سيده يشير الى كتاب (النوادر) لابن الاعرابي الذي رواه عنه تلميذه ثعلب .

(٤) هو أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري من كبار علماء القرن الهجري الثالث توفي نحو سنة ٢٨٢ ﻫ.

(٥) هو يحيى بن زياد المعروف بالفراء من أئمة الكوفة في اللغة والنحو توفي نحو سنة ١٦٠ ﻫ.

(٦) سبقت ترجمة الاصمعي في ص١٥، حاشية ٢ .

(٧) سبقت ترجمة أبي زيد الانصاري في ص١٢، حاشية ١.

(٨)،(٩)،(١٠)،(١١)،(١٢)،(١٣)،(١٤) : أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني المتوفى سنة ٢٤٨ ﻫ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ٢٨٦ ﻫ، وعلي بن الحسين الرؤاسي الملقب بكراع النمل المتوفى نحو سنة ٣٠٧ﻫ، =

المجنسة[١] فالجمهرة[٢] والعين[٣] وهذا الكتاب الموسوم بالبارع صنعة أبي علي اسماعيل بن القاسم القالي اللغوي[٤] الوارد على بني أمية بأندلس وو . . وو . . »[٥] .

وهذا الثَبت الطويل من المصادر يدلّ على أن المؤلف لم يدَّخر وسعاً لجعل كتابه كاملاً شاملاً .

ولعلَّ المخصص هو أحسن كتب المعاني القديمة التي بين أيدينا تبويباً فهذا المعجم مقسَّم الى عددٍ من الكتب المسهبة تحمل العناوين التالية : خلق الانسان ، الغرائز ، النساء ، اللباس ، الطعام ، الامراض ، المنازل ، السلاح ، الخيل ، الإبل ، الغنم ، الوحوش ، الحشرات ،

=وأبو الحسن النضر بن شميل التميمي المازني المتوفى سنة ٢٠٣هـ، وأبو عبدالله محمد ابن زياد المعروف بابن الاعرابي المتوفى سنة ٢٣١هـ، وأبو الحسن علي بن حازم اللحياني المتوفى سنة ٢١٥ هـ، وأبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦، كلهم من مشهوري علماء اللغة والادب ، عاشوا في القرنين الثاني والثالث للهجرة. ولهم جميعاً مصنفات لغوية أفاد منها ابن سيده في تأليف (المخصص).

(١) أي معاجم الألفاظ المرتبة على الحروف .

(٢) أي (جمهرة) ابن دريد . وقد سبق الكلام على هذا الكتاب ومؤلفه في الفصل الاول من هذا الكتاب .

(٣) أي (كتاب العين) للخليل بن احمد الفراهيدي . وقد سبق الكلام الكلام عليه وعلى مؤلفه في الفصل الاول أيضاً .

(٤) سبقت ترجمة القالي في ص٢٤، حاشية ٢ .

(٥) انظر مقدمة المخصص، ص١٢ .

الطير ، الانواء والسماء والفلك ، الدهور والأزمنة . الأهوية والرياح والماء ، النخيل والنبات ، المعادن . . . الخ

وكل كتاب من هذه الكتب يقسم الى أبواب بعدد ما يحتمل المعنى الاصلي من فروع . وهذه الطريقة شبيهة بطريقة الثعالبي قبله في فقه اللغة ، إلا أنها أكثر إحكاماً . فنظرة واحدة الى عناوين الفصول التي ذكرناها ترينا كيف ينتقل المؤلف من الانسان وطباعه وحوائجه الى الحيوان ، بادئاً بألصق فصائله بالانسان . فاذا انتهى من الكائنات الحية انتقل الى الحديث عن السماء والزمان وعوارض الطبيعة من رياح ومياه وبحور ، ثم الى الكلام على النباتات والمعادن . . . وهكذا إلى آخر الكتاب . نعم ، ان القارىء لهذا المعجم لا بدَّ أن يلمح في تتابع فصوله وأبوابه بعض الخلل من آن الى آخر . ولكنه يظل كما قلنا — ولو من حيث الخطوط الكبرى — من خير معاجم المعاني الكبرى في العربية ترتيباً . وقد أشار ابن سيده في مقدمة معجمه الى حرصه على تنظيم أبوابه واعتداده بهذا التنظيم فقال :

« فأما فضائل هذا الكتاب من قبل كيفية وضعه ، فمنها تقديم الأعمّ فالأعمّ على الأخصّ فالأخصّ ، والإتيان بالكليات قبل الجزئيات ، والابتداء بالجواهر والتقفية بالاعراض على ما يستحقه من التقديم والتأخير : وتقديم كمّ على كيف ، وشدة المحافظة على التقييد والتحليل ، مثال ذلك ما وصفته في صدر هذا الكتاب حين شرعت

في القول على خلق الانسان ، فبدأت بتنقله وتكونه شيئاً فشيئاً ، ثم أردفت بكلية جوهره ، ثم بطوائفه وهي الجواهر التي تأتلف منها كليته ، ثم ما يلحقه من العِظَم والصغر ، ثم الكيفيات ، كالألوان ، الى ما يتبعها من الاعراض والخصال الحميدة والذميمة . . . »[١] .

وهنا لا بدّ لنا كعادتنا من إيراد بعض النماذج نقتبسها من هذا الكتاب القيم كي تتكون لدى القارىء فكرة صحيحة عن طريقة المؤلف.

قال في فصل **الجنون**[٢] :

« صاحب العين : هي الجنة والمجنة والجنون ، جُنّ وأجنه الله فهو مجنون ... أبو عبيد : اللممَ والمس من الجنون ورجل ملموم وممسوس وهو من الجنون . ابن دريد : بفلان خطرة من الجنّ ، أي مس منه. أبو علي : خاطر من الجنّ كذلك . ابن الاعرابي : خبطة من مسّ . قال : والشيطان يخبط الانسان ويتخبطه إذا مسه بأذىً فأجنه وخبله. ابن دريد : الخباطُ داءٌ كالجنون . وقال : رجل به سفعة من الجنّ ، أي مسّ . أبو عبيد : الأولق ـ الجنون ، رجل مألوق ومؤوَلق .. ابن دريد : ألِقَ الرجل ألقا ، والأُلاق نحو الجنون . أبو زيد :

---

(١) انظر مقدمة (المخصص) ص١٠ .

(٢) المخصص، ج ٣، ص ٥٣ .

ألقه الله يألقه ألقاً . أبو عبيد : العلهُ الذي يترّدد متحيراً ، والمتبلد مثله ، وأنشد :

عَلِهت تبلّدُ في نهاءِ صواعقٍ   سبعاً تُؤاماً كاملاً أيامها[1]

والأفكلُ ـ الرّعدةُ ... أبو عبيد : الطَّيف ـ الجنونُ ، وأنشد :

فإذا بها ـ وأبيك ـ طيف جنونِ

أبو عبيدة : طيف من الشيطان ، أي يُلمّ به لَمّاً . وقال أبو علي : فقد ثبت بما حكاه أبو زيد من قولهم طاف يطيف طائفاً أن الطائف مصدر بمعناه مثل العافية والعاقبة ونحو ذلك مما جاء فيه فاعل وفاعلة ، وأنشد :

وتصبح عن غبّ السرى وكأنها   ألمّ بها من طائف الجنّ أولقُ...

ابن السكيت : الخبل ـ الجنّ ، وبه خبل أي شيء من أهل الأرض ـ يعني بأهل الأرض الجنّ ـ . ابن دريد : الخبْل والخبل من الجنون ، صاحب العين : وهو الخابل . ابن دريد : الخلاعُ كالخبل يصيب

---

(١) البيت للبيد بن ربيعة من معلقته ، وهو في وصف البقرة الوحشية التي أكل السبع ولدها . فالعله والتبلد معناهما الحيرة والتردد . و (نهاء) جمع (نهي) وهو الغدير . (وصواعق) اسم موضع . و (سبعاً تؤاماً) معناها سبع ليال كاملة مع أيامها فيكون معنى البيت : ان هذه البقرة المسبوعة بقيت تذهب وتجيء حائرة شاردة اللب حول الغدران في الموضع المسمى (صواعق) مدة سبعة أيام بلياليها .

الانسان .. وهكذا الى آخر الفصل . » .

وقال في فصل الشجاعة[١] :

« صاحب العين :الشجاعة شدة القلب عند البأس . ابن السكيت: رجل شجيع وشجاع وامرأة شجاعة وقد تكون الشجاعة في القويّ والضعيف. صاحب العين: رجل شجاع وشجع وأشجع وامرأة شجعاء وشجعة وشجيعة. ابن السكيت : قوم شجعاء وشُجعان وشِجعان ... غير واحد :شَجُع شجاعة . قال سيبويه : وإذا أراد الرجل أن يدخل نفسه في أمرٍ حتى يضاف إليه ويكونَ من أهله فإنك تقول تفعَّل نحو تشجّع . وقال : شجّعتُ الرجل على الامر - حملته عليه . سيبويه : هو يُشَجِّع أي يرمى بذلك ويقال له .... صاحب العين: الأشجع من الرجال - الذي كأنّ به جنوناً . وأنشد :

بأشجع أخاذٍ على الدهرِ حكمه فمن أيما تأتي الحوادثُ أفرقُ ؟

أبو عبيد : بطل بيّن البطولة .... الجمع أبطالٌ ولا يكسّر على غير ذلك . والأنثى بطلة والجمع بطلات ... غيره : وقد بطل . صاحب العين سمي بذلك لأن جراحته تبطل[٢] فلا يكترث لها ولا تبطلُ

---

(١) انظر المخصص، ج٣، ص٥٥ .

(٢) أي تفسد .

نجادته . ابن جني : هو الذي تبطل [1] عنده دماء الاقران بشجاعته . قال أبو علي : الأنكاد ــ الأبطال ...

ابو عبيد : رجل نجْد ونجُد ونَجِد ونجيدٌ من شدة البأس . سيبويه نجد وأنجادٌ ... أبو عبيد : نجدَ نجادةً والاسم النَّجدة . ابن السكيت النجد ـ السريع الاجابة إلى الداعي بخير أو شرٍ ، والجمع أنجاد ، وقد أنجده . والكميّ ــ الشديدُ كأنه يقمع عدوّه . يقال : كمى شهادته يكميها قمعها فلم يظهرها . وهو أيضاً الجريءُ المقدم ، كان عليه سلاح أو لم يكن ، والجمع أكماء ، حكاها أبو زيد ، فأما الكماة فجمع كامٍ . غيره الكميّ ــ اللابس للسلاح ، وقد تكمىً بسلاحه تغطّى بها . أبو عبيد : الباسل الشجاع ، وقد بسُل بسالة . ابن السكيت : تبسل في وجهه كرّه منظره ، وإنما قيل للأسدِ باسل لكراهية وجهه وقبحه . قال أبو علي : قال أبو زيد : الباسل الشجاع ، كأنه بسُلَ على قرنه أي حرم ، والبسل الحَرام والجمع بُسلاء وبُسْل . صاحب العين : أبسل نفسه للموت واستبسل : وطّن . أبو زيد : بؤُس الرجل بأساً ــ شجع صاحب العين : رجل بئيس ــ شجاع ، وقد بؤُسَ بآسة ، .. الخ .. »

هذه النصوص تظهرنا على مزايا طريقة ابن سيده في معجمه . فالمؤلف كما نرى يبذل جهده في تحديد مفهوم كل لفظة وتخصيصها بمعناها ، ولعلّ

---

(١) تذهب ضياعاً وهدراً فلا يثأر لها منه .

لفظ **المخصص** ، وهو العنوان الذي اختاره المؤلف لكتابه ، إنما أملته هذه الرغبة .

ومن مزايا هذا الكتاب حرص المؤلف على ذكر مصادره في كل خطوة يخطوها . نعم إنه لا يذكر أسماء الكتب التي يصدر عنها ، بل يجتزىء عادة بذكر المؤلفين . وما ذاك إلا لأن هؤلاء الأئمة الذين يأخذ عنهم ويستقي من آثارهم كانوا في نظره ، هم ومؤلفاتهم ، فوق كل تعريف .

ومما يجاب الانتباه أيضاً ما يظهره المؤلف من ورع علمي في الجمع والنقل ، فكثيراً ما نراه في حال اختلاف من ينقل عنهم - كاختلافهم مثلاً في تحديد معنى لفظة أو صيغة من صيغها - يذكر الروايات المتضاربة كلها ويضعها أمام القارىء دون أن يقطع بإحداها . وهذه مزية كبرى لها قيمتها في مثل هذا النوع من التصانيف القائمة على الجمع والتنسيق .

ومن مزايا الكتاب أخيراً كثرة ما فيه من الشواهد المختارة من الشعر القديم خاصة ، مما يؤكد معنى الألفاظ في نفس المراجع من جهة ، ويطلعه على طريقة استعمالها من جهة ثانية .

هذه المزايا التي عددناها هي أشبه ما يكون بمزايا معاجم الألفاظ الكبرى التي جعلناها موضوع حديثنا في الفصل الأول من هذا الكتاب مثل **القاموس** ، **واللسان** ، **والتاج** . ولا شك أنّ **المخصص** يشغل بين معاجم المعاني مثل المكانة التي تشغلها هذه الكتب بين معاجم الألفاظ .

بقي علينا ان نقول كلمة في طريقة مراجعة هذه الكتب والاستفادة منها .

يجب على المراجع والباحث في كتب المعاني التي ذكرناها أن يعتمد مبدئياً على فهارسها ، إذ أنّ لكل كتاب من هذه الكتب فهرساً تعدّد فيه أبوابه وفصوله ، حتى اذا عثر الباحث على الموضوع الذي يهمه سهل عليه أن يصل إلى اللفظ أو التعبير المراد . فإذ أراد أحدنا البحث عن اسم جزء من أجزاء الجسم الانساني كان في وسعه أن يرجع إلى كتاب **خلق الانسان** ، واذا رغب في العثور على الألفاظ المستعملة في التعبير عن خلق من الأخلاق الحميدة او الذميمة فإنه واجد مبتغاه في فصول كتاب **الغرائز** . وهكذا دواليك .

ولكن مراجعة هذه الفهارس المطوّلة ليست دائماً بالأمر السهل لأنها تستغرق وقتاً غير قليل ، ولذا حاول ناشرو بعض كتب المعاني ان يضعوا لها فهارس أو مفاتيح أبجدية تهدي الباحث إلى مواطن اللفظ الذي يختاره من أقصر السبل . فإذا أراد أحدنا البحث عن الألفاظ والتعابير المستعملة في الشيب ونعوته بحث في المفتاح الابجدي للكتاب عن **الشيب** في حرف **الشين** ، فيردّه هذا المفتاح إلى الجزء والصفحة اللذين ذكرت فيهما ألفاظ الشيب من الكتاب . وفي حرف **الضاد** ومادة **ضحك** نبحث عن موطن الألفاظ التي تتصل بالضحك والابتسام. وفي

حرف الباء ومادة بكى نبحث عن الألفاظ التي تتصل بالبكاء والنحيب والدموع ... الخ .

وكتاب **المخصص** هو من معاجم المعاني المزوَّدة بمثل هذا الفهرس الأبجدي . وكذلك الأمر في الطبعات البيروتية التي كنا أشرنا إليها من كتب ابن السكيت والهمذاني والثعالبي [١] .

***

(١) مما يجدر ذكره أيضاً هنا أن كتاب «المخصص» قد أخرجت منه طبعة مهذبة مختصرة حسنة التبويب ، مخففة من الاسانيد والروايات والشواهد ، بعنوان «الافصاح في فقه اللغة» وذلك بعناية الاستاذين عبدالفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى ، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٢٩٩ م . وهو كتاب لطيف يمكن الاعتماد عليه ولا سيما أن الطبعة الكاملة ليست في متناول الايدي دائماً .

البَابُ الثّانِي

التأليف في الادب

تمهيد

الأدب بحر واسع، والتأليف فيه مختلف النواحي متنوع الألوان، ولا سيما إذا خُرج به عن المعنى الفني الضيق الذي له في أذهاننا وهو التعبير الجميل نثراً وشعراً، إلى المعنى الثقافي الواسع الذي كان له في أذهان القدماء، وهو الأخذ من كل علم بطرف. فكلّ ما في مكتبتنا العربية من شعر ورسائل وخطب وتاريخ وفلسفة وتراجم ودراسات اجتماعية ورحلات جغرافية ونقد وقصص – وما أكثر ما فيها من كل ذلك! – هو، تبعاً لهذا المعنى الثقافيّ الواسع للادب، من صميم الأدب العربي.

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يضيق هذا الكتاب المحدود في غايته ومرماه عن استعراض حركة التأليف في هذه الميادين الثقافية الأدبية كلها. ولا بدّ لنا في هذا الكتاب، شأننا في الباب السابق، ان نختار من تيارات التأليف الأدبي ما نعتقد أنه أهمّ من غيره، وأن حاجة الطالب والباحث والمراجع تشتد إليه أكثر من سواه.

وفي ضوء هذه الحاجة رأينا الاقتصار في هذا الكتاب على بحث الأنواع الثلاثة التالية من أنواع التأليف الأدبي، وهي:

آ – مجموعات الشعر العربي القديم.

ب ـ كتب الثقافة الادبية العامة .

حـ ـ كتب تراجم الادباء على اختلاف أصنافهم ، من شعراء ولغويين ونحاة وكتاب ومترسلين ومصنفين وسواهم .

وغني عن البيان مالهذه الأنواع الثلاثة من شأن بين المراجع والمصادر التي تشتد الحاجة إليها .

وجرياً على عادتنا في هذا الكتاب سنتناول بالحديث كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة ، مبينين تطوره التاريخي وملحين على أهم الكتب المصنفة فيه .

* * *

الفصل الأول

مجموعات الشعر العربي القديم

رواية الشعر في الجاهلية وصدر الاسلام

دراسة الشعر العربي القديم تهمّ الأدباء والنقاد من الناحية الفنية ، وتهم اللغويين لبيان خصائص اللغة العربية وتطورها من عصر إلى آخر ؛ وتهم علماء الدين الذين يستعينون بمفردات هذا الشعر وشواهده على توضيح معاني كثير من ألفاظ القرآن والحديث ؛ وهي تهم أخيراً مختلف المختصين في العلوم الاجتماعية لما في هذا الشعر الذي كان ينعت بحق بأنه (ديوان العرب) — أي مستقر معارفهم ومستودع علومهم — من دلالات كثيرة على تاريخ العرب السياسي وعلى حياتهم الاجتماعية والدينية والفكرية .

والمعروف أن الشعر العربي في قديم عصوره كان في الغالب الأعم يتناقل شفاها ، وأن الشاعر الناشىء كثيراً ما كان يتتلمذ على شاعر آخر أرسخ منه قدماً في الشعر ، فيختص به ، ويصبح راويته الموكل بحفظ

شعره وإذاعته . وقد روى المؤرخون أن الحطيئة ، الشاعر الهجاء المخضرم المعروف ، كان راوية الشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن ابي سلمى وابنه كعب ، وأن زهيراً هذا كان في عصره راوية زوج أمه الشاعر الجاهلي التميمي الكبير أوس بن حجر . ويروي المؤرخون أيضاً أن كثير بن عبد الرحمن الخزاعي ، الشاعر العذري الإسلامي المشهور بكثير عزة، كان راوية لجميل بن عبدالله معمر العذري المعروف بجميل بثينة ، وأن جميلاً هذا كان راوية لشاعر عذري تقدمه اسمه هدبة بن خشرم [1] كان هو ايضاً بدوره راوية للحطيئة . وليس في مثل هذا النوع من الرواية التي تختص بشاعر بعينه مايستغرب ، بل هي على العكس طريقة في الرواية معقولة وباعثة على الطمأنينة والثقة ، لأنها قائمة على أساس من المحبة والاعجاب ونحن الآن إذا أحب أحدنا شاعراً أو أولع بكاتب نراه يدرس آثاره بشغف ويبذل جهده في حفظها والمحافظة عليها ، وكذلك كان يفعل الشاعر الناشىء قديماً إذا أغرم بشعر أحد معاصريه .

وإلى جانب هذه الرواية المخصصة ،وجد في الجاهلية وصدر الإسلام رواة كثيرون لم يكونوا يقصرون عنايتهم على شاعر واحد ، بل يروون جيد الشعر العربي مهما اختلف قائلوه . وقد ذكر المؤرخون

---

(١) هدبة بن خشرم شاعر حجازي من بني عامر بن ثعلبة ، قتل قوداً في المدينة نحو سنة ٥٤ هـ ، أخباره في (الاغاني) : ج – ٢١ ، ص – ١٦٩ .

عدداً من هؤلاء المشاهير كمخرمة بن نوفل [١] وعقيل بن أبي طالب [٢] وعبدالله بن العباس [٣] .

نشاط الرواية في عصر التدوين :

لبث الشعر العربي خلال الفتوح الكبرى وطوال القرن الهجري الأول تتناقله الرواة من جيل الى جيل ، وظهر خلال هذا القرن عدد كبير من الشعراء الاسلاميين زادوا الثروة الشعرية العربية غنىً على غنى ،وأسمعوا الناس في الدين والسياسة والحبّ نغمات جديدة لم يعرفها أهل الجاهلية البتة ، أو عرفوها ولكن على صورة أقلّ وضوحاً وقوة. ثم جاء القرن الثاني ، وهو عصر توقف الفتوح ، وعصر الاستقرار والانشاء الحضاري ، فانصرفت القوى المبدعة المنظمة الى الجهاد في

---

(١) أبو صفوان مخرمة بن نوفل القرشي ؛ صحابي عالم بالانساب راوية للشعر كف بصره في ايام عثمان وتوفي معمراً في زمن معاوية .

(٢) هو شقيق الخليفة الراشد علي بن ابي طالب ، كان عالماً بانساب قريش واخبارها راوية للشعر . فارق اخاه ولحق بمعاوية نحو سنة ٦٠ هـ .

(٣) هو ابن عم الرسول (ص) . كان يلقب بحبر الامة أي عالمها . كان قوي الحافظة واسع الثقافة جداً ، فكان متضلعاً في الفقه والتفسير والانساب والشعر وايام العرب ؛ وكان كثيراً مايوزع ايامه على هذه الاختصاصات المختلفة فيجعلها يوماً للفقه ، ويوماً للتأويل ، ويوماً للمغازي ، ويوماً للشعر ، ويوماً لوقائع العرب . توفي سنة ٦٨ هـ .

ميدان جديد هو ميدان الفكر ، وأخذت تستفرغ مجهودها كي تجمع الآثار المفرّقة ، وتبحث عن التراث الضائع ، وتنظم وتبوّب وتدوّن في كل فن وعلم ، فلم يبلغ القرن الثاني غايته حتى كان التدوين قد بلغ أشدّه .

ومن الطبيعي بعد ذلك أن نرى فريقاً من العلماء في هذا القرن ، وفي القرن التالي ، يخصون ثراث العرب الشعري ، ولا سيما الجاهلي منه ، بعنايتهم ، فيجمعون ماتفرّق منه ، ويحاولون إنقاذ ماتبقى في الصدور بعد أن أتى ضرام الفتوح على قسم جليل منه (١) . فالشعر العربي — علاوة على قيمته الفنية — كان كما قلنا مادة لاغنى عنها لكثير من العلوم .

وقد ظهر خلال القرن الهجريّ الثاني ، وفي القرن الذي تلاه ، عدد كبير من رواة الشعر . ومعظم هؤلاء الرواة كانوا في الوقت ذاته من رواة اللغة وعلمائها الأعلام ، ولا غرابة في ذلك لأن جمع اللغة وجمع الأدب كانا يجريان جنباً الى جنب على اعتبار ان كلاً منهما متمم للآخر .

---

(١) روى ابن سلام الجمحي في مقدمة كتابه (طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين) ان أبا عمرو بن العلاء كان يقول : « ماانتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله . ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير . » وقال ابن سلام ايضاً : « قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه . فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو بلاد فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا (أي لم يرجعوا) الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم اكثره » .

من اشهر هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء [١] ، وهو استاذ الرواية غير منازع ، والمفضل الضبي [٢] وخلف الاحمر [٣] وحماد الرواية [٤] والاصمعي [٥] وابو زيد الانصاري [٦] وابن سلام

---

(١) هو من أئمة اللغة والادب والرواية الموثوقة ، واحد القراء المشاهير . يصفه ابو عبيدة بأنه كان اعلم الناس بالادب والعربية والقرآن والشعر ، وكانت عامة اخباره عن اعراب ادركوا الجاهلية . ولدابو عمرو بن العلاء في مكة وعاش في البصرة وتوفي في الكوفة نحو سنة ١٥٤ هـ . وكان استاذ جيل من العلماء والرواة امثال الاصمعي وابي زيد ويونس والرؤاسي والاخفش وعيسى بن عمر . يقال انه احرق كل كتبه في اواخر حياته ورعا وتقى وانصرف الى دراسة القرآن وحده .

(٢) هو أبو العباس المفضل بن محمد الضبي ، صاحب (المفضليات)، من أشهر رواة الكوفة وأوثقهم ، توفي نحو سنة ١٦٨ هـ . ويرجح الاستاذان احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، محققا الطبعة الاخيرة من المفضليات ، انه توفي سنة ١٧٨ هـ .

(٣) هو ابو محرز خلف بن حيان الاحمر البصري . راوية مشهور حمل عليه الشيء الكثير في روايته . توفي سنة ١٨٠ هـ .

(٤) هو حماد بن ميسرة المبارك الديلمي الكوفي ، اشتهر بالرواية كثيراً حتى لقب بالراوية . وقد طعن عليه في روايته كثيراً . انظر القصة التي رواها ياقوت في ترجمة المفضل الضبي ، وكيف ابطل الخليفة المهدي رواية حماد لزيادته في اشعار الناس وصحح في الوقت نفسه رواية المفضل ، توفي حماد سنة ١٥٥ هـ .

(٥) سبقت ترجمة الاصمعي في ص ١٥ حاشية (٢)

(٦) سبقت ترجمة ابي زيد الانصاري في ص (١٢) ، حاشية (١) .

الجمحي [١] وابو سعيد السكري [٢] وابو عمرو الشيباني [٣] ومحمد بن حبيب [٤] وعلي بن عبد الله الطوسي [٥] وابن السكيت [٦] وثعلب الكوفي [٧] وغيرهم .

نعم إنه لمن المؤسف حقاً أن تكون قد خالطت هذه الحركة النزيهة

---

(١) هو محمد بن سلام بن عبد الله الجمحي ، الراوية الناقد الاخباري المعروف ، صاحب كتاب (طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين) ، توفي سنة ٢٣٢هـ .

(٢) هو ابو سعيد ، الحسن بن الحسين السكري ، أشهر رواة الشعر وصناع الدواوين في عصره واخصبهم تأليفاً . توفي في البصرة نحو سنة ٢٧٥ هـ ، اخباره في (الفهرست) و (معجم الادباء) .

(٣) هو ابو عمرو اسحق بن مرار الشيباني ، احد ائمة الرواية واللغة في عصره كان استاذاً لثعلب الكوفي وابن السكيت وغيرهما . الف عدة رسائل لغوية كما جمع عدداً من دواوين الشعراء ؛ توفي نحو سنة ١٢٣ هـ ؛ اخباره في (الفهرست)

(٤) محمد بن حبيب نسابة ولغوي وراوية معروف ، قرأ على ابن الاعرابي وابي عبيدة . كان من موالي بني العباس ، و(حبيب) اسم امه ، جميع دواوين عدد من الشعراء ذكرهم (الفهرست) و (معجم الادباء) توفي نحو سنة ٢٤٥هـ .

(٥) ابو الحسن علي بن عبدالله الطوسي . أحد أئمة الكوفة في الرواية واللغة والنحو ، يلقبه صاحب (الفهرست)براوية القبائل واشعار الفحول . صنع عدداً من الدواوين ، توفي حوالي منتصف القرن الهجري الثالث .

(٦) سبقت ترجمة ابن السكيت في ص ٤٩ ، حاشية (١) .

(٧) ثعلب لقب ابي العباس احمد بن يحيى الشيباني امام الكوفة في اللغة والنحو في عصره ، وتوفي ثعلب في بغداد سنة ٢٩١ هـ . من اشهر تصانيفه في اللغة والادب (الفصيح) وقد طبع اكثر من مرة في مصر و(مجالس ثعلب =

النشيطه بعض النوازع المذهبيةو العنصريةو السياسيةو القبلية و الشخصية، تلك النوازع المريضة التي استطاعت أن تستثمر ما كان يظهره العصر من حرص شديد على جمع ماتبقى من الشعر القديم فأدخلت على هذا الشعر العربي ماليس منه ، مما حمل بعض مؤرخي الأدب على الشك في صحة ماروي من الشعر القديم .

ولكن يجب ألا ننسى أن اختلاط الزيف بالصحيح أحياناً لا يكفي لنكران الصحيح ذاته ، وأن من عادة الزيف الدخيل أن يكون أقل من الصحيح الأصيل . ويجب ألا ننسى أيضاً أنه إن وجد بين الرواة عدد قليل ممن أعمتهم غاياتهم ومنافعهم عن الأمانة العلمية ، فقد وجد إلى جانبهم عدد كبير من الثقات أصحاب الضمائر النقية . وقد تنبّه هؤلاء منذ ذلك الحين على تلاعب المزيفين ، فبذلوا وسعهم في التنبيه على زيفهم والحد من خطرهم .

ومهما يكن من الأمر فإنه لايسع الباحث المنصف إلا أن يقرّ بفضل هؤلاء العلماء والرواة الذين حفظوا لنا ما أمكنهم حفظه من الشعر العربي القديم . ولولا جهودهم لأسدل ستار كثيف دون ماضينا الادبي

= وقد طبع في مصر سنة ١٣٦٨هـ . بتحقيق عبد السلام هارون . يقول ابن النديم في (الفهرست) : «عمل ابو العباس قطعة من أشعار الفحول وغيرهم ، منها الاعشى والنابغتان وطفيل والطرماح وغير ذلك ..»

البعيد ، وللقيت العلوم اللغوية والاسلامية من جراء ذلك عنتاً كبيراً .

جمع الدواوين وتصنيف المختارات :

ولم يقتصر الرواة في هذا القرن على الرواية الشفهية شأن الرواة القدماء ، بل عكف كثيرون منهم على التصنيف الجدي ، فصنعوا الدواوين ، وجمعوا أشعار القبائل ، وصنعوا المجموعات الشعرية وكتب المختارات المتنوعة ، مما ترك للباحثين بعدهم ذخيرة كبيرة من الوثائق يتعرفون من خلالها إلى ملامح الشعر العربي في أبعد عصوره ومراحل تطوره .

ولو رجعنا إلى كتب التراجم نسألها عما جمع هؤلاء الرواة من دواوين القدماء لما وسعنا إلا أن نعجب بالجهود العظيمة التي بذلوها في هذا السبيل . فهذا أبو عمرو الشيباني يجمع مثلاً دواوين امرىء القيس ، ولبيد بن ربيعة، وتميم بن مقبل ، ودريد بن الصمة ،والأعشى ، والحطيئة ، وسواهم . وهذا الاصمعي يرتب دواوين النابغتين الذبياني وامرىء القيس ، ومهلهل ، وبشر بن أبي خازم و كثير غيرهم . وهذا محمد بن حبيب يجمع اشعار ذي الرمة ، والفرزدق ، وجران العود ، والصمة القشيري . وهذا أبو الحسن الطوسي يجمع دواوين زهير ، ولبيد ، والاعشى ،وحميد بن ثور ، والطرماح ، والعباس بن مرادس . وهذا أبو سعيد السكري يجمع دواوين اكثر من خمسين شاعراً يذكر

اسماءهم ابن النديم في الفهرست وكذلك باقي الرواة ، فلكل منهم عدد من دواوين القدماء عني بروايتها وجمعها ، حتى قل أن نسمع بشاعر لم يجمع إذ ذاك ديوانه، اللهم إلا أن يكون الشاعر مقلاً أو من المغمورين.

وإلى جانب هذه الدواوين الكثيرة التي وصلنا بعضها وفقد الكثير منها ، صنف بعض الرواة والعلماء مجموعات شعرية بنوها على الاختيار والاصطفاء ، لا على الاستيعاب والشمول ، كما هو الأمر في جمع الدواوين .

هذه المجموعات الشعرية يختلف بعضها عن بعض من حيث الفكرة الموجهة . فبعض هذه المجموعات يرمي إلى إثبات عددٍ كثير أو قليل من القصائد المطولة الشهيرة بتمامها ، وبعضها الآخر يكتفي ، على العكس ، بالابيات الجميلة ينتقيها من كل قصيدة . ومن هذه المجموعات ما هو مبوب على المعاني الشعرية المعروفة ، ومنها مايجمع المختارات جنباً الى جنب مهما اختلفت موضوعاتها . ومن هذه المجموعات أخيراً ما لا يضم بين دفتيه إلا الشعر الجاهلي فلا يتعداه ، ولو إلى شعر صدر الاسلام ، إلا نادراً ، ومنها ما ينتقي الشعر الجيد من الجاهلية وصدر الاسلام على حد سواء .

وفائدة هذه المجموعات الشعرية تختلف عن فائدة الدواوين . فالديوان ضيق الافق ، اختصاصي الموضوع ، يفيدنا اكثر ما يفيدنا في دراسة شاعر بذاته . أما هذه المجموعات فهي أوسع أفقاً ، لتنوع

موضوعاتها وتعدد شعرائها . فتصويرها للحياة الفنية والاجتماعية أكمل؛ هذا إلى أنها تدل على ذوق العصر الذي تصنف فيه ، كما تدل على ذوق مصنفها بوجه خاص .

أشهر المجموعات الشعرية المصنفة في القرنين الثاني والثالث

المفضليات — لعل أقدم مجموعة شعرية وصلتنا مما صنف في القرن الهجري الثاني كتاب المفضليات [1] لمصنفه المفضل بن محمد بن يعلى الضبي ، الراوية الكوفي المشهور المتوفى سنة ١٦٨ هـ [2] . والذي كان من أعلام عصره في العربية والشعر والاخبار .

ذكر ابن النديم في الفهرست ان المفضل « خرج مع ابراهيم بن عبد الله بن حسن فظفر به المنصور ، فعفا عنه والزمه المهدي . وللمهدي عمل الاشعار المختارة المسماة بالمفضليات ، وهي مائة وثمانية وعشرون قصيدة . وقد تزيد وتنقص ، وتتقدم القصائد وتتأخر ، بحسب الرواية عنه . والصحيحة التي رواها عنه ابن الاعرابي . » يستنتج من

---

(١) طبعت (المفضليات) طبعة اخيرة جيدة ظهرت في مصر عام ١٣٦٢هـ (١٩٤٣ م) في جزأين بتحقيق الاستاذين احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ثم اعادا طبعها في جزء واحد . كما طبعت من قبل في بيروت عام ١٩٢٠ م مع شرح ابي محمد القاسم بن بشار الانباري عليها ، بتحقيق المستشرق (ليال) .

(٢) أو سنة ١٧٨ هـ كما ذكرنا في ص ٨٧ ، حاشية (٢) .

هذا الذي ذكره صاحب الفهرست ان **المفضليات** إنما صنعها المفضل لتثقيف تلميذه محمد بن عبد الله المهدي ولي عهد المنصور .

ونحن نعلم أن خروج إبراهيم بن عبد الله على المنصور ومقتله كانا سنة ١٤٥ ﻫ ، وان المهدي إذ ذاك كان في الثامنة عشرة من عمره تقريباً . ولم يتول المهدي الخلافة إلا سنة ١٥٨ ﻫ بعد وفاة ابيه المنصور . فإذا صح ما قاله ابن النديم — وهو خبر يتواتر في كثير من كتب الادب مع بعض الاختلاف — كان لنا أن نقول إن جمع **المفضليات** جرى بين سنتي ١٤٥ و ١٥٠ ﻫ على أبعد تقدير . ومثل هذه النتيجة تجعل من هذا الكتاب أقدم المختارات الشعرية التي وصلتنا .

أما قول ابن النديم : « وللمهدي عمل الأشعار المختارة المسماة بالمفضليات » فدليل على أن المفضل حينما صنف كتابه سماه **الأشعار المختارة** ، أو اسماً آخر قريباً من هذا . ولكن الأدباء فيما بعد أطلقوا على هذه المجموعة اسم **المفضليات** تمييزاً لها من كتب المختارات الأخرى التي صنفت بعدها .

للمفضليات منزلة كبرى في الأدب العربي . فهي ، إلى كونها أقدم مجموعة من نوعها في الشعر العربي ، تمتاز بميزات كثيرة .

فمن ميزاتها أنها لاتضم من الاشعار إلا ما كان قديماً . فهي تحتوي على ١٣٠ قصيدة[1] لستة وستين شاعراً جلهم عاشوا وماتوا في الجاهلية ،

---

(١) هذا عدد المفضليات في طبعتها الاخيرة بتحقيق الاستاذين احمد محمد=

وليس بينهم إلا عدد قليل من المخضرمين والاسلاميين الأولين .

ومن ميزاتها أيضاً أن القصائد في هذه المجموعة قد أثبتت بتمامها ، ولم يعمد المفضل إلى الاختيار والتفضيل بين أبيات القصيدة الواحدة .

ومن أهم ما تمتاز به هذه المجموعة أن اسم مؤلفها كان أبداً موضع الاحترام ، فلم يطعن عليه أحد من معاصريه أو ممن جاء بعد في أمانته وصدقه ، على كثرة من طعن عليه من رواة الشعر في ذلك العصر[١] . بل المعروف المشهور أن المفضل كان من أوائل الذين تنبهوا ونبهوا على بعض محاولات الرواة الآثمة .[٢]

=شاكر وعبد السلام هارون . وقد سبق ان اشرنا الى ماذكره ابن النديم في الفهرست من ان المفضليات « مئة وثمانية وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه . » والحق ان هنالك اختلافاً في عدد المفضليات . ويرجح ان عدد هذه القصائد في أصل الكتاب لم يتجاوز الثمانين وان الاصمعي وبعض اصحابه من الرواة هم الذين اضافوا الى الكتاب من اختيارهم قصائد اخرى على نسقها . [انظر في هذا الموضوع مقدمة الطبعة الاخيرة من المفضليات .]

(١) وفي طليعة هؤلاء الرواة المطعون عليهم حماد الراوية الكوفي وخلف الاحمر البصري . اقرأ في هذا الموضوع ما كتبه طه حسين في كتابه (في الادب الجاهلي) بعنوان (الرواة وانتحال الشعر) .

(٢) ذكر ياقوت في ترجمة المفضل مايلي : « قال ابن الاعرابي : سمعت المفضل الضبي يقول : قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح ابداً . فقيل له فكيف ذلك ؟ أيخطىء في روايته او يلحن ؟ قال : ليته كان

هذه الميزات كافية في توضيح أسباب تلك المنزلة الكبرى التي كانت **المفضليات**، ومازال، تتمتع بها لدى العلماء والباحثين. ففي هذه المجموعة صورة للشعر العربي القديم، هي بلا ريب اقرب صوره التي نملكها إلى الصحة والكمال؛ وما ذلك إلا لأنها جمعت في عهد بعيد لم يكن الزيف قد تطرق فيه إلى تراثنا الشعري بشكل صريح. كما أن شخصية المفضل، وما عرف عنه في علمه من استقامة وورع، ضمان على صحة هذه الصورة.

الأصمعيات. — ومن المجموعات الشعرية القديمة التي صنفت في القرن الثاني مجموعة تسمى **الأصمعيات** نسبة الى مصنفها عبد الملك بن قريب الاصمعي، الراوية اللغوي الاخباري المعروف، المتوفى نحو سنة ٢١٦ ه. وقد عرف الاصمعي بسعة روايته للشعر حتى لقبه الرشيد **بشيطان الشعر**؛ وحتى قيل عنه، وقال عن نفسه، إنه كان يحفظ كذا وكذا ألفاً من الاراجيز بله القصائد؛ وهي أرقام، على ما فيها من تهويل وإغراق لا شك فيهما، تدل على ما عرف به الاصمعي في عصره من اطلاع واسع على شعر العرب. وقد بلغ الاصمعي في عصره من

= كذلك، فان اهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب. ولكنه رجل عالم بلغات العرب واشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب الرجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق، فتختلط اشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد. واين ذلك؟ ».

الشهرة في رواية الادب والاخبار وحسن تأتيه في الحديث ما لم يبلغه المفضل او احد سواه من الرواة ، حتى أصبح — وشأنه في ذلك شأن أبي نواس مثلا — شخصية أسطورية من تلك الشخصيات التي يعج بها عصر الرشيد ، ذلك العصر الذي طبع شخصية (هارون الرشيد) نفسه بطابع اسطوري يلاقي المؤرخون كثيراً من العنت في تجريدها منه .

والاُصمعيات اسم اطلق على هذه المجموعة كما اطلق اسم المفضليات على مجموعة المفضل تمييزاً لكل من المجموعتين من الاخرى . ولا شك أنه ، على رغم هذا التمييز ، قد حدث كثير من التمازج والتداخل بين قصائد المجموعتين[1] . ومجموعة الاصمعي في الطبعة الاخيرة التي صدرت منها في مصر عام ١٩٥٥ ، بتحقيق الاستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، تحتوي على اثنتين وتسعين قصيدة بينها عدد من المقطوعات القصيرة[2] . وشعراء هذه المجموعة هم كشعراء المفضليات جلهم من الجاهليين القدماء .

---

(١) انظر في هذا الموضوع مقدمة الطبعة الاخيرة من (المفضليات) بتحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون .

(٢) وقد سبق ان طبعت الاصمعيات من قبل في مدينة (ليبزيغ) عام ١٩٠٢ بتحقيق المستشرق الالماني و . اهلورد ، او كما يسمي نفسه (وليم بن الورد) . وهي في هذه الطبعة لاتحتوي الا على سبع وسبعين اصمعية . ومرد هذا التباين في عدد قصائد الطبعتين يعود خاصة الى ان المستشرق الذي اشرف على الطبعة الاولى حذف من الكتاب عدداً من المقطوعات والقصائد التي وجدها مشتركة بين (الاصمعيات) و (المفضليات) .

وتعتبر الأصمعيات في نظر الباحثين خير متمم لمجموعة المفضل من حيث تصوير واقع الشعر العربي القديم ، وان كانت المفضليات تفضلها لقدمها ولأن الاصمعي قد حمل عليه في روايته ما لم يُحمل مثله على المفضل[١] .

جمهرة أشعار العرب[٢] . — ومن المجموعات الشعرية القديمة كتاب جمهرة أشعار العرب المنسوب لراوية مغمور لا نعرف عنه شيئاً ولا نجد له ترجمة في كتب الادب هو أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي . وهذا الراوية يروي أكثر أخباره في مقدمة كتابه عن شيخ له اسمه ابو عبد الله المفضل بن عبد الله المجبري . وهو على ما يظهر من سلالة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، إذ أن اسمه يرد أحياناً في مقدمة الجمهرة كما يلي :

المفضل بن عبد الله بن المجبر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب[٣] .

---

(١) اقرأ ما كتبه المرحوم احمد أمين في هذا الموضوع في الجزء الثاني من (ضحى الاسلام) ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٢) طبعت الجمهرة عدة طبعات اقدمها واشهرها طبعة بولاق عام ١٣٠٨هـ.

(٣) : جاء في القاموس المحيط : « المجبَّر ـ بفتح الباء ـ ابن عبد الرحمن ابن عمر بن الخطاب » وجاء في (جمهرة الأنساب) لابن حزم ـ ص ١٤٦ ـ : «وولد عبدالرحمن الأصغر بن عمر بن الخطاب : عبدالرحمن بن عبدالرحمن، لقبه المجبّر » . ويفهم أيضاً مما جاء في (جمهرة الأنساب) بعد ذلك أن أحد أحفاد =

وفي بعض مواضع المقدمة يعمد المؤلف إلى الاختصار فيقول : (أخبرنا المفضل) ولا يزيد على ذلك شيئاً . ومما يؤسف له أن (المفضل) قد سمي في موضع واحد من مقدمة الكتاب أو في موضعين على الأكثر (المفضل بن محمد الضبي) ، وهذا بلا ريب خطأ من النساخ المتأخرين الذين خلطوا بين المفضل الضبي المشهور صاحب المفضليات ، وبين المفضل المجبري سليل عمر بن الخطاب . ولعل هذا الخطأ هو الذي دفع مثلاً العلامة المرحوم أحمد أمين في كتابه ضحى الاسلام إلى الظن بأن مؤلف الكتاب ، أبا زيد القرشي ، ربما كان من تلاميذ المفضل الضبي[١] . ومثل هذا الظن لامسوغ له لاننا لو رجعنا إلى المؤلف في مقدمة كتابه لاستنتجنا منها أن أبا زيد القرشي وأستاذه المفضل المجبري كانا في عصر متأخر عن عصر المفضل الضبي بما لا يقل عن نصف قرن[٢] .

= المجبر ولي قضاء مصر في عهد الرشيد وبقي في منصبه هذا الى أن عزله الأمين؛ وأن جلّ ولد عبد الرحمن المجبر كانوا في مصر . فلعل أبا زيد القرشي مؤلف الجمهرة كان أيضاً مصرياً أو مغربياً ، ولا سيما أن ابن رشيق القيرواني صاحب (العمدة) كان أسبق مؤلفي العرب الى ذكره وذكر كتاب (جمهرة أشعار العرب) .

(١) : ضحى الاسلام، ج٢، ص٢٧٦ .

(٢) : فيما يلي بعض هذه الاسانيد الواردة في مقدمة (جمهرة أشعار العرب) :

أ ـ اخبرنا المفضل قال: أخبرني أبي عن جدي عن محمد بن اسحق عن ... =

هذه المجموعة الشعرية الشهيرة تحتوي على تسع وأربعين قصيدة مطولة من عيون شعر الجاهلية وصدر الإسلام . وقد وزعها المؤلف في سبع فئات متكافئة ، كل فئة منها تضم سبع قصائد وتحمل اسماً خاصاً .[1] وهذه هي أسماء الفئات السبع : المعلقات - المجمهرات - المنتقيات - المذهبات - المراثي - المشوبات - الملحمات . ومن الممكن أن نجد لبعض هذه الأسماء تفسيراً مقنعاً ، كالمعلقات والمراثي والمشوبات[2] . أما الأسماء

= (ومحمد بن اسحق هذا توفي نحو سنة ١٥٠ هـ) .

ب - حدثني المفضل عن أبيه عن الاصمعي عن ... (والاصمعي توفي نحو سنة ٢١٦ هـ) .

جـ - حدثني سنيد بن محمد الازدي عن ابن الاعرابي عن ... (وقد توفي ابن الاعرابي نحو سنة ٢٣١ هـ) . ومن الواضح الجلي في مثل هذه الاسانيد أن مؤلف (الجمهرة) لا يمكن أن يكون تلميذاً للمفضل الضبي ، وان المفضل الذي ورد اسمه في الاسنادين (أ) و (ب) غير المفضل الضبي المشهور ، وان مؤلف الجمهرة قد عاش في أواسط القرن الهجري الثالث على اقل تقدير .

(١) للجمهرة طبعة أخرجتها المكتبة التجارية الكبرى بمصر عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦م) تصرّف صاحبها بعض الشيء في ترتيب القصائد ، فألحق قصيدة عنترة بالمعلقات فأصبحت ثماني قصائد ، على حين أنها في الاصل (مجمهرة) لا (معلقة) . وبذلك اصبحت المجمهرات في الطبعة المشار اليها ستاً . وفي مثل هذا التصرف بُعدٌ عن قواعد النشر العلمي .

(٢) المشوبات هنا أي القصائد التي شابها الشرك والاسلام ، وهي سبع=

الأخرى فمجرد مصطلحات تصلح لتمييز بعض هذه القصائد من بعض . ويظهر أن هذه الألقاب كانت معروفة قبل ظهور هذه المجموعة إلى حيز الوجود ، وأن أبا زيد القرشي أخذها عن أساتذته ولم يأت بها من عند نفسه . وهذا ما يفهم من قوله في المقدمة نقلاً عن شيخه المفضل ، بعد أن تحدث عن أصحاب السموط السبعة أو المعلقات السبع : « وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعدهن سبعاً ما هن بدونهن ، ولقد تلا أصحابهن أصحاب الأوائل فما قصروا ؛ وهن المجمهرات . . . وأما منتقيات العرب فهن للمسيب بن عاس والمرقش ... الخ » .

ومما يلفت النظر في هذه المجموعة القيمة ما فيها من تناظر مصطنع في التقسيم . فالمجموعة كما قلنا تضم سبع زمر في كل منها سبع قصائد . ومثل هذا التأنق في التقسيم ، بالإضافة إلى الأسانيد التي أوردها المصنف في مقدمته ، يحمل على الاعتقاد بأن الكتاب من ثمرات القرن الهجري الثالث الذي شهد في مطلعه نموذجاً آخر من هذا التناظر في طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين لابن سلام الجمحي .

= قصائد اختارها مؤلف (الجمهرة) لسبعة من المخضرمين هم النابغة الجعدي وكعب ابن زهير والقطامي والحطيئة والشماخ وعمرو بن احمر الباهلي وتميم بن مقبل العامري .

والمجموعة بعد خير متمم في نظر العلماء لمجموعتي المفضل والأصمعي اللتين سبقت الإشارة إليهما . فهي مثلهما تضم نماذج جيدة وكاملة من شعر الجاهلية وصدر الاسلام ، كما أن فيها عدداً من القصائد الشهيرة التي لا يعثر عليها في الدواوين والمجموعات التي صنفت قبلها .

ديوان الهذليين . — ولا يفوتنا أخيراً أن نشير إلى مجموعة شعرية أخرى تختلف عن المجموعات السابقة بأنها قاصرة على شعراء قبيلة عربية بعينها . ونعني بها مجموعة أشعار بني هذيل المسماة **ديوان الهذليين** .

وقد عني عدد من العلماء والرواة بجمع أشعار كثير من القبائل العربية ، كلٍّ منها على حدة في كتاب خاص . من أشهر هؤلاء الرواة أبو عمرو الشيباني[1] ، فقد ذكر ابن النديم في الفهرست أن أبا عمرو هذا جمع شعر ما يزيد على ثمانين قبيلة[2] . ومن مشهوري الرواة الذين اتجهوا هذا الاتجاه في جمعهم للشعر العربي أبو سعيد السكري الذي جمع أشعار خمس وعشرين قبيلة عدد ابن النديم أيضاً أسماءها في كتابه

---

(١) سبقت ترجمة أبي عمرو الشيباني في ص٨٨ ، حاشية ٣ .

(٢) أنظر (الفهرست) ، ص١٠١ . وفي ياقوت (ج ٦ ص ٧٩) أن عمرو ابن أبي عمرو الشيباني قال : لما جمع أبي أشعار القبائل كانت نيفاً وثمانين قبيلة ، فكان كلما عمل منها قبيلة واخرجها للناس كتب مصحفاً بخطه وجعله في مسجد الكوفة حتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً .

الفهرست[١] . ولاريب في أن جمع الشعر العربي على هذا النحو هو اتجاه في الرواية مفيد جداً ، لأنه يطلعنا على ما لكل قبيلة من خصائص فكرية ولغوية وفنية تتصف بها .

ولم يصلنا مع الأسف من كل هذه المجموعات الكثيرة سوى ديوان الهذليين الذي يضم أشعار ما يقرب من ثلاثين شاعراً من بني هذيل . وقد عني بلم شعث هذا الشعر وترتيبه وشرحه أبو سعيد السكري[٢] بعد أن سبقه إلى التقاطه وجمعه عدد من كبار الرواة أمثال الأصمعي وابن الاعرابي وأبي عمرو الشيباني وغيرهم .

وهذيل قبيلة عربية مضرية شديدة القرابة من قريش ، وتنحدر مثلها من مدركة بن الياس بن مضر بن نزار . وكانت هذيل تسكن قريباً من مكة والطائف . واشتهرت هذه القبيلة بكثرة شعرائها حتى نقل عن الأصمعي أنه قال : « إذا فاتك الهذلي أن يكون شاعراً أو رامياً فلا خير فيه . » واشتهرت هذيل أيضاً بفصاحتها وسلامة لغتها من الشوائب ، إذ أنها كانت تعيش في وسط الجزيرة العربية بعيدة عن السواحل وجوار الأعاجم ، حتى عدّها العلماء إحدى قبائل العرب التي يحتجّ بكلامها في اللغة . ولعلّ إعراق هذه القبيلة في الشعر

(١) انظر (الفهرست) ص٢٢٦ و (معجم الادباء) ج — ٨ ص ٩٨—٩٩ .
(٢) سبقت ترجمة السكري في ص٨٨، حاشية ٢ .

والفصاحة هو الذي دفع الرواة إلى العناية بجمع أشعارها وحفظها وشرحها.

ولو أنّ أشعار القبائل العربية الأخرى حُفظت لنا كما حفظت أشعار هذيل، لفتحت أمام الباحثين في تاريخنا الأدبي طرق جديدة في البحث ربما أدت إلى الكشف عن الخصائص الفنية واللغوية لكل قبيلة.

الحماسات:

وهناك فئة ثانية من المجموعات الشعرية تختلف عن المجموعات التي سبقت الإشارة إليها في هذا الفصل بكونها لا تثبت القصائد المختارة تامّة، وإنما تعنى أكثر ما تعنى بالمقطوعات والأبيات القليلة تختارها من المطولات. وهي تختلف أيضاً عن تلك المجموعات بكونها مبوّبة حسب المعاني الشعرية المشهورة. ونسمي هذه الفئة من كتب المختارات الشعرية بالحماسات لغلبة هذا الاسم عليها، وإن سمي بعض هذه الكتب باسم آخر.

حماسة أبي تمام. — من أشهر مجموعات هذه الفئة كتاب **الحماسة** للشاعر الكبير أبي تمام حبيب بن أوس الطائي المتوفي سنة ٢٣١هـ.[١]

---

(١) طبعت الحماسة لوحدها عدة مرات، كما طبعت مع شرح التبريزي عليها للمرة الاولى مع ترجمة للغة اللاتينية، في اوربا، بعناية المستشرق الالماني فريتاغ، =

ذكر الخطيب التبريزي أحدُ شرّاح الحماسة أن أبا تمام قصد الأمير عبدالله بن طاهر بخراسان فمدحه ، وأنه في طريق عودته توقف في همذان عند صديقه أبي الوفاء بن سلمة الذي انزله وأكرمه. وأصبح أبو تمام ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطرق ومنع السابلة ، فغمه ذلك. وأراد مضيفه أن يسري عنه فاحضره خزانة كتبه ليطالعها ويشتغل بها . فصنف أثناء مقامه ذاك عدة كتب أحدها كتاب الحماسة . هذا خبر لا ندري مبلغه من الصحة ، فتأليف عدة كتب أحدها الحماسة يقتضي من الوقت ما لا يتسع له انحباس صديق عند صديق بسبب انقطاع الطريق . فإذا صح الخبر لزمنا أن نشكر المصادفات التي دفعت أبا تمام إلى بيت صديقه في همذان ، وجعلت الثلج يحول بينه وبين المضي في طريقه ، فأتحفت الأجيال بكتاب هو بلا ريب أثمن ما تحتويه الخزانة العربية من كتب المختارات القديمة .

ولعل ابا تمام أجدر أدباء عصره بتصنيف مجموعة مختارة من الشعر القديم . فهو أحد الشعراء العباقرة وأمير شعراء طبقته بلا منازع .

= منذ منتصف القرن التاسع عشر . ثم طبع شرح التبريزي في مطبعة بولاق في ٤ اجزاء سنة ١٢٩٦ هـ . وقد أعيد طبع هذا الشرح اخيراً في مصر بعناية الاستاذ محيي الدين عبدالحميد . وطبعت الحماسة ايضاً مع شرح المرزوقي عليها بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥١ بتحقيق الاستاذ المرحوم احمد امين والاستاذ عبد السلام هارون .

وهو في الوقت ذاته من اكثر شعراء العربية أصالة ، وأقومهم ذوقاً ، واعرفهم بتراث العرب الشعري . ولذا جاء كتابه تحفة فنية رائعة ، و كنزاً من الشعر باقياً على الدهر . فطارت شهرته قديماً وحديثاً و كثر الثناء عليه ، حتى غلا بعض المعجبين به فقال : « أبو تمام في حماسته أشعر منه في شعره . »

صنف أبو تمام حماسته على عشرة أبواب هي : **باب الحماسة** ، **وباب المراثي** ، **وباب الأدب**[١] ، **وباب النسيب** ، **وباب الهجاء** ، **وباب الاضياف والمديح**[٢] ، **وباب الصفات**[٣] ، **وباب السير و النعاس**[٤] ، **وباب الملح** ،

---

(١) كلمة (أدب) مستعملة هنا بمعناها الخلقي لا بمعناها الفني او الثقافي. فكل مختارات هذا الباب من ابواب حماسة أبي تمام موضوعها الثناء على الاخلاق الفاضلة ككتمان السر والصبر والحلم والمروءة .

(٢) موضوع هذا الباب الفخر بكرم الضيافة من جهة والمدح من جهة ثانية . والموضوعان مختلفان . ولعل أبا تمام جمعهما في باب واحد لانه كان يرى ان الفخر نوع من انواع المدح يخص به الشاعر نفسه وقومه .

(٣) باب (الصفات) هو أشدّ ابواب حماسة أبي تمام اختصاراً اذ لا يضم سوى مقطوعات ثلاث : الاولى في وصف الهاجرة ، والثانية في وصف أرنم ، والثالثة في وصف البرق والمطر .

(٤) موضوع هذا الباب وصف السير والسرى والليل وما يعتري الراكب من نعاس بعد السير الطويل . وما اجدر هذا الباب ان يكون ملحقاً بباب الصفات لا باباً مستقلاً بنفسه .

وباب مذمة النساء . والباب الأول — أي باب الحماسة — هو أكبر أبواب الكتاب ، وبه سمي الكتاب بكامله ، كما سمي قبله كتاب العين مثلاً باسم الباب الاول منه . وقد اثبت أبو تمام في هذا الباب ما اختاره من أقوال القدماء في الشجاعة والإقدام والحض على النزاع وتحمل المكروه والاستهانة بالموت وإدراك الثأر وما الى ذلك من المعاني الحماسية.

وأبو تمام ، على مايظهر ، كان أسبق المصنفين الى اتباع هذه الطريقة في تأليف المختارات : طريقة تنسيق المختارات بحسب الفنون الشعرية. فاتبعه المصنفون بعد ذلك وساروا على نهجه . يدلّ على ذلك كثرة الحماسات التي الفت بعده : كحماسة صنوه ومعاصره الشاعر البحتري المتوفى سنة ٢٨٤ ﻫ ، وحماسة الأخوين الأديبين الشاعرين محمد وسعيد الخالديين من رجال القرن الهجري الرابع ، وحماسة أحمد بن فارس اللغوي المشهور وأحد رجال القرن الرابع أيضاً ، وحماسة أبي السعادات هبة الله بن الشجري المتوفي سنة ٥٤٢ ﻫ ، وحماسة أبي الحجاج يوسف بن محمد البيّاسي الاندلسي المتوفي سنة ٦٥٣ ﻫ ، وغيرهم ، وتعدّد الحماسات على هذا النحو دليل على شهرة حماسة أبي تمام وعلى ما لاقته لدى الأدباء من قبول ورعاية حتى اندفعوا يعارضونها ويحذون حذوها من جيل إلى جيل .

ومما يدلّ أيضاً على شهرة حماسة أبي تمام كثرة من تصدّى لشرحها من جلة العلماء والأدباء كأبي هلال العسكري ، والحسن بن بشر

الآمدي ، وأبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، وأبي الفتح عثمان بن جني في القرن الهجري الرابع ؛ وكأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي ، وأبي زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب التبريزي ، وأبي الفضل الميكالي ، والأعلم الشنتمري ، وأبي المحاسن مسعود بن علي البيهقي في القرن الخامس ، وكأبي البقاء عبد الله بن حسين العكبري في القرن السادس[١] وقلّ أن تجد في المكتبة العربية كتاباً من كتب الأدب لقي من عناية الشرّاح والدارسين ما لقيه هذا الكتاب .

أما شعراء الحماسة فليس بينهم من المحدثين إلا نفر قلائل كمسلم ابن الوليد ودعبل وأبي العتاهية . والباقون ـ وهم الأغلبية العظمى ـ من قدامى الجاهليين والاسلاميين . كما أن في الحماسة أشعاراً كثيرة جميلة لعدد من الشعراء المغمورين أو المجهولين . وما أكثر ما تنطوي عليه الحماسة من روائع شعرية لا نجدها في الدواوين التي بين أيدينا أو في المجموعات الشعرية التي ألفت قبلها . وهذا مما يرفع من قدر الحماسة في نظر العلماء الباحثين عن كنوز الشعر العربي القديم ؛ مع ما لها من منزلة كبرى في نفوس الهواة المشغوفين بالشعر الجميل .

حماسة البحتري . ــ ومن أشهر الحماسات بعد حماسة الطائي الأول أبي تمام حماسة الشاعر الطائي الكبير الثاني أبي عبادة الوليد بن عبيد

---

(١) كشف الظنون ، ج ١ ص ٦٩١–٦٩٢ .

البحتري المتوفى سنة ٢٨٤ هـ[1] . ويقال إن البحتري ألف هذا الكتاب معارضاً به كتاب أبي تمام نزولاً عند رغبة أحد كبار ممدوحيه ، الفتح ابن خاقان وزير الخليفة العباسي المتوكل على الله .

ويمتاز هذا الكتاب بما امتاز به سابقه من أنه صنع شاعرٍ كبير مرهف الذوق ، يعرف كيف يميز غثّ الشعر من سمينه . كما يمتاز أيضاً بأنه جمع بين دفتيه مختارات جميلة لأكثر من ستمئة شاعر جلهم من الجاهلية وصدر الاسلام .

واذا كان ثم من فارق واضح بين الحماستين فانما هو في توزيع أبواب كل منهما . فأبو تمام صنف مختاراته كما رأينا في عشرة أبواب كبيرة . أما البحتري فقد صنف مختاراته في مئة وأربعة وسبعين باباً مقتضباً ؛ وذلك لأنه عني بالمعاني الجزئية أكثر مما عني بأغراض الشعر الرئيسية . فهو لا ينظر في تبويب كتابه الى الحماسة والمديح والوصف والرثاء والهجاء وما الى ذلك من الفنون الشعرية . وإنما يراعي الأفكار التفصيلية التي تعوّد الشعراء التعبير عنها في كل من هذه الأغراض . وقد سمى البحتري كتابه حماسة حباً بمعارضة أبي تمام ، ولكننا لا نجد في مجموعته باباً واحداً بهذا الاسم . ومع ذلك فالأبواب السبعة والعشرون الاولى

(١) طبعت حماسة البحتري طبعة جيدة مذيلة بالفهارس والتعليقات المفيدة بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩١٠ . ثم أعيد طبعها في مطبعة المكتبة التجارية بمصر سنة ١٩٢٩ .

من كتابه إنما تفصّل المعاني الحماسية التي أجملها أبو تمام في باب واحد[١] كما ان في هذا الكتاب عشرين باباً كل منها يتضمن معنى من معاني الصداقة[٢] ، وسبعة أبواب كل منها ينطوي على معنى من معاني الشيب[٣] . . . وهكذا دواليك .

---

(١) هذه اسماء الابواب العشرة الاولى منها نذكرها هنا على سبيل المثال: **الباب الاول** — فيما قيل في حمل النفس على المكروه . **الباب الثاني** — فيما قيل في الفتك . **الباب الثالث** — فيما قيل في الاصحار (أي البروز) للأعداء والمكاشفة لهم وترك التستر منهم . **الباب الرابع** — فيما قيل في مجاملة الاعداء وترك كشفهم عما في قلوبهم . **الباب الخامس** . — فيما قيل في الاطراق حتى تمكن الفرصة . — **الباب السادس** — فيما قيل في بقاء الاحنة ونمو الحقد وان طال عليها الزمان . **الباب السابع** . — فيما قيل في الانفة والامتناع من الضيم والخسف . **الباب الثامن** . — فيما قيل في ركوب الموت خشية العار . **الباب التاسع** . — فيما قيل في الاستسلام على الذل بعد الامتناع . **الباب العاشر** . — فيما قيل في التحريض على القتل بالثأر وترك قبول الدية ... الخ .

(٢) وهي الابواب ٢٨—٤٨ ؛ وهذه اسماء بعض الابواب منها على سبيل المثال : **الباب الثامن والعشرون** — فيما قيل في مؤاخاة الكرام وحمدها . **الباب التاسع والعشرون** — فيما قيل في ترك مؤاخاة اللئام وذمها . **الباب الثلاثون** — فيما قيل في ابتلاء الرجال قبل مؤاخاتهم . **الباب الحادي والثلاثون** — فيما قيل فيمن تتهم مودته ولا يوثق بإخائه . **الباب الثاني والثلاثون** — فيما قيل في اخلاص الود لمن وددت وترك الرضى لهم بما لاترضى به لنفسك ... الخ .

(٣) وهي الابواب ١١٦—١٢٢ ؛ وهذه اسماؤها : **الباب السادس عشر والمئة** — فيما قيل في الشباب والشيب . **الباب السابع عشر والمئة** — فيما قيل=

وخلاصة القول انه اذا جاز لنا أن نقول ان **حماسة أبي تمام** هي كتاب في **فنون الشعر**، كانت **حماسة البحتري** كتاباً في **معاني الشعر**. وقد توزّعت هاتان الطريقتان جهود مؤلفي المختارات الشعرية فيما بعد، فمنهم من جرى على نهج أبي تمام، ومنهم من فضل طريقة البحتري. ولكل من الطريقتين مزية ليست للاخرى. فطريقة البحتري أدق تبويباً وأشد إسعافاً للباحث عما قيل في معنىً من المعاني الشعرية الصغرى ولكنّ عناية المؤلف بالتفاصيل حملته على تمزيق أوصال القصائد والاكتفاء بالمقطوعات القصيرة والأبيات المفردة يختارها من هنا وهناك. أما **حماسة أبي تمام** فقطعاتها أقرب الى التمام وتصوير واقع شعرنا القديم، لأن هم المؤلف في الموضوع العام لا في المعنى الجزئي. ولكن الباحث عن الافكار الشعرية التفصيلية، المتشوق لمعرفة ما قيل في كل منها على حدة، لا يستطيع أن ينقع غلته في هذا الكتاب بمثل السهولة التي يبلغ بها بغيته في مجموعة البحتري.

في الاعتذار من الشيب. **الباب الثامن عشر والمئة** — فيما قيل في مدح الشيب. **الباب التاسع عشر والمئة** — فيما قيل في قبح الصبابة بذي الشيب. **الباب العشرون والمئة** — فيما قيل في مدح الشباب وذم الشيب. **الباب الحادي والعشرون والمئة** — فيما قيل في مدح الشيب وذم الشباب. **الباب الثاني والعشرون والمئة** — فيما قيل في الكبر والهرم.

حماسة ابن الشجري ومختاراته . —

ومن أشهر الحماسات بعد كتابي أبي تمام والبحتري حماسة ابن الشجري أحد مشهوري أدباء بغداد في القرن الهجري الخامس[1] وهذا الكتاب يشبه أن يكون وسطاً بين تينك الحماستين ، فهو مؤلف من ستة عشر باباً أساسياً بينها عدد من أبواب حماسة أبي تمام ذاتها ، مثل أبواب الحماسة والمراثي والهجاء والمديح والأدب والنسيب والملح . ولكن أحد أبواب هذا الكتاب ، وهو باب صفات النساء والتشبيهات ، قد قسم الى عدد من الفصول ينطوي كل منها على معنى جزئيّ من أبواب المعنى الاصلي .

والكتاب بعد ذلك شبيه بحماستي البحتري وأبي تمام من حيث كثرة عدد شعرائه وكونهم ينتمون إلى مختلف العصور الادبية . غير أن نصيب

---

(١) ابن الشجرى هو الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني ، ينسب الى بيت الشجري من قبل أمه . والشجري نسبة الى (شجرة) وهي قرية من اعمال المدينة المنورة . وكان ابن الشجري نقيب الطالبيين في الكرخ . توفي سنة ٥٤٢ هـ . وقد اناف على التسعين . طبعت (حماسته) عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧م) بحيدر اباد الدكن في الهند بعناية المستشرق الالماني (كرنكو) . وطبعت (مختاراته) في مصر عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦م) بعناية محمود حسن زناتي . ولابن الشجري كتاب في الادب مشهور اسمه (الامالي) طبع في حيدر آباد الدكن في الهند سنة ١٣٤٩ هـ في جزأين .

هذا الكتاب من الشعر المحدث يفوق نصيب سابقيه . وليس أدلّ على ذلك من أن المؤلف ، مع استشهاده بكثير من الشعر المحدث في مختلف أبواب الكتاب ، يخص المحدثين بباب مستقل من أبواب كتابه عنوانه مقطعات من غزل شعراء من المحدثين .

ولابن الشجري مجموعة اخرى من المختارات الشعرية تعرف بمختارات ابن الشجري او ديوان مختارات شعر العرب . والمؤلف في هذا الكتاب يُعنى بالشعر القديم وحده دون المحدث ، وبالقصائد التامة دون المقطعات . ولذا جاء كتابه اشبه بالمفضليات والاصمعيات منه بالحماسة التي ذكرناها .

وتضمّ المختارات مايقرب من خمسين قصيدة لاربعة عشر شاعراً كلهم من الجاهليين إلا مخضرماً واحداً هو الحطيئة . ولم تُصنف هذه القصائد بحسب موضوعاتها أو معانيها كما هو الامر في حماسته والحماسات الاخرى ، وإنما رويت دون ترتيب على اعتبار أنها مجموعة من القصائد العربية القديمة الجميلة ليس غير ، كما هو الامر في بالمفضليات والاصمعيات ومن الممكن جداً أن يكون ابن الشجري قد أراد بهذه المختارات معارضة المفضل والاصمعي . بينما أراد بالحماسة مجاراة ابي تمام والبحتري .

* * *

هذه أشهر مجموعات شعرنا العربيّ القديم، عرضنا لذكرها في هذا الفصل المقتضب فبينا أنواعها . وميزات كل نوع منها، وأشهر مجموعات هذا النوع مرتبة ترتيباً زمنياً . وقد حرصنا كلّ الحرص على بيان الفروق الاساسية بين مجموعة وأخرى، وبين نوع ونوع، كي تتيسر الافادة من هذه المجموعات كل بحسب اتجاهها ومضمونها، لأن هذه المجموعات كما اشرنا إلى ذلك في بدء هذا الفصل هي — بعد الدواوين الشعرية — أهم مصادرنا في دراسة الشعر العربي في عصوره الغابرة .

❀❀❀

الفصل الثاني

كتب الثقافة الادبية العامة

يعقد ابن خلدون في مقدمته المشهورة فصلاً **في علوم اللسان العربي**، فيتكلم بالتتالي على علوم النحو واللغة والبيان، ثم ينهي فصله بالبحث في **علم الادب** فيقول[1]:

« هذا العلم لا موضوع له ينظر إليه في إثبات عوارضه أو نفيها. وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم. فيجمعون لذلك من كلام العرب ماعساه تحصل به الملكة من شعرٍ عالي الطبقة، وسجعٍ متساوٍ في الإجادة، ومسائل في اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرّقة، يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية، مع ذكر بعضٍ من أيام العرب يفهم به مايقع في أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهمّ من الانساب الشهيرة والأخبار العامة. والمقصود بذلك كله ألا يخفى على الناظر

---

(١) أنظر (المقدمة) ص ٥٥٣ — ٥٥٤ .

فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه ،لأنه لاتحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه ، فيحتاج الى تقديم جميع مايتوقف عليه فهمه . ثم إنهم إذا ارادوا حدّ هذا الفنّ قالوا : **الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف** ، يريدون: من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط ، وهي القرآن والحديث ، إذ لامدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب ، إلاّ ماذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية ، فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهم . وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: **أدب الكتاب**(١)

---

(١) كتاب (ادب الكتاب) او (ادب الكاتب) لعبدالله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، كتاب في اللغة لا في الادب . فهو بأبوابه الاولى يشبه معاجم المعاني التي تحدثنا عنها في الباب الاول من هذا الكتاب ، وبأبوابه الاخرى كتاب يبحث في بعض المسائل الاملائية والصرفية الهامة . فوصف ابن خلدون لكتب الادب لاينطبق على هذا الكتاب . ولعل ابن خلدون انما ذكر هذا الكتاب بين دواوين الادب الاربعة لان هذه الكتب الاربعة في نظره يتمم بعضها بعضاً ، فاذا درسها طالب الادب خرج منها جميعها بثقافة ادبية كاملة . وقد طبع كتاب (أدب الكاتب) عدة طبعات أشهرها الطبعة الاوربية بمدينة (ليدن) الهولاندية سنة ١٩٠١ م . باشراف المستشرق ماكس غرونرت .

لابن قتيبة، وكتاب **الكامل** للمبرّد [١]، وكتاب **البيان والتبيين** للجاحظ [٢]، وكتاب **النوادر** لأبي علي القالي البغدادي [٣]. وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع عنها.»

هذا النص الذي كتبه ابن خلدون في القرن الهجريّ الثامن [٤] ثمين جداً لأنه يوضح لنا مفهوم الأدب والأديب وكتب الأدب عند العرب حتى عصره على الأقل [٥]. فالأدب، بحسب هذا المفهوم، ثقافة عامة واسعة ترمي قبل كل شيء إلى تكوين ملكة البيان لدى صاحبها وجعله قادراً على إجادة التعبير عن أفكاره نثراً أو شعراً. والأديب، بحسب هذا المفهوم أيضاً، إنما هو الرجل المثقف الآخذ من كل علم بطرف، والقادر على التعبير عن أفكاره بالكلام الجيد المنظوم أو المنثور. وأخيراً فإن ابن خلدون إنما يصدر في كلامه هذا عن كتب الأدب ذاتها، إذ أن جلّ الكتب العربية التي جرت العادة قبله وفي أيامه بتسميتها بكتب الأدب أو بدواوين الادب تصدّق بمضمونها ماقاله في تعريف الادب.

ولعلّ أوضح مايميز كتب الادب من سواها صفتان:

أمّا **الصفة الاولى** فهي فقدان الاختصاص. فكتاب الادب من

---

(١)، (٢)، (٣): سيأتي الكلام مفصلا عن هذه الكتب الثلاثة في هذا الفصل.

(٤) أنهى ابن خلدون تأليف مقدمته سنة ٧٧٩ هـ.

(٥) نقول (على الاقل) لأن هذا المفهوم سيستمر في الحقيقة حتى فجر النهضة العربية الحديثة.

حيث الاساس لايقتصر على فن واحد بل يطرق شتى الفنون ويتلوّن بمختلف الالوان . وهو الى هذا ، لايتناول كلا من هذه الفنون أو الالوان بمعالجة منطقية متعمقة تتناوله من كل أطرافه بالتقصي والاستقراء بل تكون معالجته إياها أقرب إلى السطحية والاصطفاء .

وأما الصفة الثانية : فهي الاستطراد المستمر ، وإن شئت فقل الفوضى. فنرى المؤلف ينتقل في كتابه من قصة إلى حديث ، ومن مقطوعة شعرية إلى حكمة أو خطبة ، ومن نبذة تاريخية الى بحث في الحيوان أو النبات أو النجوم ، ومن وصف معركة الى مسألة كلامية أو فلسفية ، ومن نادرة لغوية الى فكاهة شعبية ، ومن مطالعة اجتماعية إلى تفسير آية كريمة أو حديث شريف ، مسوقاً في كل هذا بما يسمى بتداعي الأفكار .... وقد يعود المؤلف بعد هذا المطاف إلى موضوعه الذي بدأ به أو لايعود فإذا عاد اليه فما أسرع ماينصرف عنه من جديد... وهكذا دواليك .

ولكن هذه الفوضى في كتب الأدب متعمدة ومقصودة لذاتها . وأكثر مؤلفي كتب الادب يصرّحون في مصنفاتهم أنهم قصدوا قصداً إلى تنوع الانغام لنفي السأم عن السامع والقارىء . ذلك أن هؤلاء المصنفين لم يكونوا يرمون من تأليف كتبهم هذه إلى إكساب القارىء ثقافة عميقة في موضوع بذاته بل إلى جعله **بأخذ من كل علم بطرف** كما قال ابن خلدون ، أي الى تثقيفه ثقافة أدبية وفكرية عامة .

ومما تجب الاشارة إليه هنا أن هذه الفوضى تختلف نسبتها من كتاب الى آخر ، وأنها أشد ما تكون ظهوراً في كتب الادب الاولى التي ظهرت خلال النصف الاول من القرن الهجري الثالث . ثم أخذ مؤلفو كتب الادب يخففون من غلواء هذا الاضطراب ويدخلون على مصنفاتهم شيئاً من التنظيم والتبويب . ولكن تنوّع الموضوعات والاستطراد يبقيان ، على رغم هذه المحاولات ، الصفتين الرئيسيتين لكتب الادب .

ومن الانصاف بعد هذا أن نعترف بأن هؤلاء المؤلفين قد وفقوا إلى إدراك مبتغاهم بتنويع موضوعات كتبهم وسلوكهم فيها سبيل الاستطراد غالباً . فالمتصفح لهذه الكتب يجد فيها متعة لا تحدّ ، لأنه لا يدري وهو يقرأ في إحدى الصفحات ما ذا تدخره له الصفحة التالية من مفاجآت . كما أن هذا التنوع في كتب الأدب جعلها صالحةً لكل زمن . فالانسان المثقف في كل عصر محتاج في بعض أوقاته إلى مثل هذه المؤلفات الخفيفة الظل ، المحببة الى النفس ، التي لا تجهد قارئها ولا تشق عليه ، بل تسليه بمفاجآتها الفكرية وطرائفها الفنية. وأخيراً فان دواوين الأدب هذه ، بفضل اتساع أفقها وتعدّد مراكز الاهتمام فيها ، أصبحت من أهم مصادر الباحثين في دراساتهم الادبية . فهي مصادر غنية جداً للدراسات المتصلة بالأدب وتاريخه من حيث هو فن من الفنون الجميلة . ولكنها في الوقت ذاته مصادر جدّ ثمينة لكثير من

البحوث اللغوية والتاريخية والاجتماعية والفلسفية .

أشهر كتب الأدب في القرن الهجري الثالث :

ربما كانت المكتبة العربية مدينة للجاحظ قبل سواه بابتداع هذا الباب ، وأكثر كتبه انطباقاً على مفهوم كتب الأدب كما أتينا على ذكره اثنان : **الحيوان والبيان والتبيين** . وقد ألفهما الجاحظ في أواخر حياته وهو مصاب بالفالج الذي ألحّ عليه أكثر من عشرين عاماً قبل أن يودي به سنة ٢٥٥ ﻫ . ألف أولهما قبل سنة ٢٣٣ وأهداه الى وزير المعتصم والواثق ، الكاتب الشاعر الاديب محمد بن عبد الملك الزيات[١] . وألف ثانيهما بعد ذلك التاريخ ، أي بعد مقتل ابن الزيات . وأهداه الى خصمه العنيف ، قاضي المعتصم والواثق والمتوكل ، الفقيه المتكلم الشاعر أحمد بن أبي دواد[٢] . وقد أشار في **البيان والتبيين** الى كتاب **الحيوان** في غير موضع[٣] ، مما يدل دلالة قاطعة على أن **الحيوان**

---

(١) من المعروف أن ابن الزيات نكب وعذب الى أن مات سنة ٢٣٣ﻫ . وذلك في مفتتح خلافة المتوكل على الله .

(٢) توفي ابن أبي دواد مفلوجاً سنة ٢٤٠ ﻫ في خلافة المتوكل على الله .

(٣) أنظر (البيان والتبيين) ؛ ج١ ، ص٦٠ و ص٢٢٥ . وأوضح هذه الاشارات قوله في الجزء الثالث منه (ص — ٣٠٢) : « كانت العادة في كتاب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الاعراب ونوادر الاشعار ... فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر ان شاء الله » .

أسبق ظهوراً من صنوه **البيان والتبيين** . ولا شك في أن تأليف الجاحظ مثل هذين الكتابين العظيمين ، بعد أن اصطلحت عليه العلل ، دليل على قوة نفسه وجبروت فكره ؛ ولا سيا أنه ملأ كتابيه هذين عذوبة وابتساماً ومرحاً ؛ وكأن تصنيفه لهما ولأمثالهما كان ينسيه آلامه الجسمية ويجعله يتسلى بنشاط فكره وتوقد قريحته عن جسده الأبتر وطرفيه الباردين .

والجاحظ يعدُّ أديب العربية الاكبر في العصر العباسي الاول غير منازع . وهو الرجل الذي تمثل ثقافة عصره — بل ثقافات عصره — ومثلها خير تمثيل في كتبه الكثيرة المتنوعة . وهو الكاتب الذي استطاع بأسلوبه الدافىء الحي الوثاب المتموج أن يجعل آثاره تنبض حياةً على مر العصور . وهو الانسان الاجتماعي الذي أدرك معنى الحياة وقيمتها فاستقطر كل لحظاتها . واستوحى كل مقوّماتها ، وأشبع حواسه وأحاسيسه ؛ ولم يكن يرى في مظهرٍ من مظاهرها ، أو كائن من كائناتها ، ما يستسخف أو ما لا يليق بالكاتب أن يجعله موضوعاً لحديثه ولذا جاءت كتبه وفيها من غزارة المادة ، وطرافة الدلالة ، وتدفق الحياة ، ما قلّ أن نجده في كتاب أدبي آخر . ولو أن كتبه فقدت لفقد معها ما لا يعوض من آداب العرب القديمة والمحدثة ، ومن الاشارات الثمينة الى مختلف مظاهر الحضارة الاسلامية في القرنين الثاني والثالث خاصة .

والجاحظ ، على علمه الغزير ، أديب قبل كل شيء . فهو يعرف كيف ينفذ الى قلب القارىء بألفاظه الحية ، وتعابيره المأنوسة ، ونوادره الطريفة . فتراه يتنقل بقارئه كالفراشة من زهرة الى زهرة ، ومن حقل الى حقل ، فلا يدعه إلا وقد أفاد من صحبته أعظم الفوائد في عقله وبيانه . وقديماً قالوا في كتب الجاحظ انها تعلم الانسان أن يكون إنساناً ، وإنها تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً[1] . ذلك أنها كما قلنا تجمع الى المعارف الواسعة الطريقة الادبية في التعبير الجميل والتنقل العفوي المرح .

---

(١) روى صاحب (وفيات الأعيان) في ترجمة الجاحظ القصة التالية : « قال أبو القاسم السيرافي : حضرنا مجلس الاستاذ الرئيس أبي الفضل (أي : ابن العميد) ، فقصر رجل بالجاحظ وأزرى عليه . وحلم الاستاذ عنه ، فلما خرج قلت له : سكتّ أيها الاستاذ عن هذا الجاهل في قوله ، مع عادتك بالرد على أمثاله ؟ فقال: لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله . **ولو واقفته وبينت له النظر في كتبه لصار انسانا** ، ياأبا القاسم ! **كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً ، والادب ثانياً** ، ولم أستصلحه لذلك ! » .

كتاب الحيوان . — [(١)]

يقول الجاحظ في هذا الكتاب مخاطباً قارئه [(٢)] :

« ينبغي أن تكون ، اذا مررت بذكر الآية والاعجوبة في الفراشة والجرِجسة [(٣)] ، ألا تحتقر تلك الآية ، وتصغر تلك الاعجوبة ، لصغر قدرهما عندك ، ولقلة معرفتهما عند معرفتك ، ولصغر أجسامهما عند جسمك . ولكن كن عند الذي يظهر لك من تلك الحكم ومن ذلك التدبير كما قال الله عز وجل : (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء) [(٤)] . . .

وأنا أعيذ نفسي بالله أن أقول إلا له ، وأعيذك بالله أن تسمع إلا له ، وقد قال الله عز وجل : (وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا ،

---

(١) طبع كتاب الحيوان للمرة الاولى في مصر في سبعة أجزاء عام ١٣٢٤هـ. ثم طبع للمرة الثانية في مصر بين سنتي ١٩٣٨ و ١٩٤٧ م في سبعة أجزاء أيضاً بتحقيق عبدالسلام هارون . وهذه الطبعة جيدة ومزودة بالفهارس المتنوعة المفيدة . وفي سنة ١٩٥٥ م طبع في القاهرة ملحق لكتاب الحيوان باسم (القول في البغال) بتحقيق المستشرق شارل بيلا .

(٢) الحيوان : ج ٤ ، ص ٢١٠ .

(٣) الجرجسة : البعوضة الصغيرة .

(٤) الاعراف : ١٤٥ .

وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون)[١] . فاحذر من أن تكون منهم ، وممن ينظر إلى حكمة الله وهو لايبصرها . »

ومثل هذا التنبيه تردد في غير موضع من الكتاب . وربما كان هذا هو الغرض الاساسي من تأليفه . فالجاحظ رأس من رؤوس المعتزلة . وهؤلاء قد أكثروا من الكلام على مافي المخلوقات ـ ومنها الحيوان ـ من حجة على حكمة الخالق[٢] .

والقرآن الذي سميت بعض سوره بأسماء بعض الحيوانات[٣] كثيراً مايضرب الحيوانات أمثالاً على حكمة الله وبديع قدرته[٤] .

يضاف إلى هذا أن الجاحظ ، كسواه من متكلمي عصره ، كان مطلعاً على ما نقل إلى العربية من آثار اليونان في العلم والفلسفة ، ومنها كتاب الحيوان لأرسطو . كل هذه الأمور شجعت الجاحظ على تأليف كتاب الحيوان الذي هو الأول من نوعه في اللغة العربية .

ولكن الجاحظ أديب قبل كل شيء ؛ فسرعان ما انقلب هذا

---

(١) الاعراف : ١٩٨ .

(٢) أنظر على سبيل المثال القصيدتين اللتين نظمها في الحيوان بشر بن المعتمر المعتزلي ؛ وقد أثبتها الجاحظ في (كتاب الحيوان) وشرحها (ج٦، ص ٢٨٤ فما يلي) .

(٣) كسورة النحل ، والنمل ، والبقرة ، والفيل ، والأنعام .

(٤) من ذلك قوله تعالى : «أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت» [الغاشية : ١٧] وقوله : «ان الله لا يستحي أن يضرب مثلًا مابعوضة فما فوقها» [البقرة : ٢٦] .

الموضوع الوقور بين يديه الساحرتين إلى موضوع خفيف الظل، متعدد الالوان، متشعب النواحي. وغدا كتابه، من جراء ذلك، من أغنى كتب الادب بالأخبار والشعر والخطب والاقاصيص والنوادر، ومن أحفلها بالمعلومات الفلسفية والكلامية والجغرافية والطبية والتاريخية.

وقد تعمد الجاحظ في كتابه هذا اتباع الطريقة الأدبية، وأشار إلى قصده هذا في اكثر من موضع منه فقال:(١)

« هذا كتاب موعظة وتعريف، وتفقه وتنبيه. وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده، وتتفكر في فصوله، وتعتبر آخره بأوله، ومصادره بموارده. وقد غلطك فيه بعض ما رأيت في أثنائه من مزحٍ لم تعرف معناه، ومن بطالة لم تطلع على غورها، ولم تدر لم اجتلبت، ولأي علة تكلفت، وأي شيء أريغ فيها، ولاي جدٍّ احتمل ذلك الهزل، ولاي رياضةٍ تجشمت تلك البطالة. ولم تدر أن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد، وأن البطالة وقار ورزانة إذا تكلفت لتلك العاقبة. »

وقال في موضع آخر:(٢)

« على أني عزمت ـ والله الموفق ـ أني أوشح هذا الكتاب، وأفصل أبوابه، بنوادر من ضروب الشعر وضروب الاحاديث،

---

(١) الحيوان: ج١، ص٣٧.
(٢) الحيوان: ج٣، ص٧.

ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب الى باب ، ومن شكل الى شكل. فإني رأيت الاسماع تمل الاصوات المطربة ،والاغاني الحسنة ،والاوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها . وما ذلك إلا في طريق الراحة التي اذا طالت أورثت الغفلة . وإذا كانت الاوائل قدسارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح[1] . وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً . »

ويظهر أن تصنيف كتب الادب على مثل هذه الطريقة ذات الانغام المتعددة والالوان المختلفة لم يكن بالامر السهل . والجاحظ مصدق حين يقول في وصف العناء الذي لقيه في سبيل وضع كتابه هذا :[2] .

« وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه . أول ذلك العلة الشديدة[3] ، والثانية قلة الاعوان ، والثالثة طول الكتاب ، والرابعة أني لو تكلفت كتاباً في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه. ثم كان من كتب العرض والجوهر والطفرة والتولد والمداخلة

---

(١) ان كثيراً من الادباء ، ومنهم الاستاذ المرحوم أحمد امين (ضحى الاسلام : ج١، ص ٣٩٢) يجعلون الجاحظ مسؤولاً عن فوضى كتب الأدب. ولكن كلام الجاحظ هنا صريح بان كثيرين سبقوه الى اتباع هذه الطريقة في كتب صغيرة . فليس من الجائز ان يحمل وحده كل التبعة في هذه الفوضى .

(٢) الحيوان : ج٤، ص٢٠٨ .

(٣) اشارة الجاحظ صريحة هنا الى انه ألف كتابه اثناء مرضه كما ذكرنا .

والغرائز والتماس[١] ، لكان أسهل وأقصر أياماً ، وأسرع فراغاً . لاني كنت لا أفزع فيه الى تلقط الاشعار . وتتبع الامثال . واستخراج الآي من القرآن والحجج من الرواية . مع تفرق هذه الامور في الكتب . وتباعد ما بين الاشكال . »

وهذا الكلام صريح في أن الجاحظ قد اضطره تصنيف كتابه الى الرجوع الى عدد وافر من الكتب . في موضوعات مختلفة . ولو أن كتابه كان مقصوراً على موضوع بذاته أو مسألة بعينها لتخفف من بعض هذا العناء .

والحق يقال ، إن القارىء في كتاب الحيوان يلمس بنفسه وفرة الكتب التي استعان بها الجاحظ من أجل جمع شتات المادة الغزيرة المتنوعة التي ضمنه إياها . ولاشك أن في رأس الكتب التي صدر عنها الجاحظ الدواوين ومختلف المجموعات الشعرية ، وذلك نظراً الى الشعر الكثير الذي انتشر بغزارة في شتى فصول الكتاب . وهو شعر قيل في مختلف الموضوعات . ولاسيما في وصف الحيوانات من إبل وخيل وظباء ووعول ومها وكلاب وطيور جارحة وسواها . ثم يلي الدواوين والمجموعات الشعرية ما صنف من الكتب في القرآن

---

(١) كل هذه من المسائل الكلامية التي كان يكثر فيها البحث والجدل . ويجب ألا يغيب عن بالنا أن الجاحظ كان من متكلمي عصره ، وانه رئيس فرقة من فرق المعتزلة تسمى (الجاحظية) .

والحديث والكلام والاخبار فما نقل الى العربية من آداب الفرس وفلسفة اليونان، وفي طليعة كل ذلك كتاب الحيوان لارسطو . فإذا أضفنا الى كل هذه التصانيف الخبرة الشخصية ، والملاحظة الذكية ، والنهم العقلي الذي لايكاد يشبع ، عرفنا بصورة مجملة مصادر الجاحظ في كتاب الحيوان .

أما مضمون الكتاب ، فإن الاستاذ عبد السلام هارون ، محققه في طبعته الاخيرة ، يجمل الحديث فيه قائلاً[1] :

« قد يوهم اسمه أنه قد خصص بالحيوان وما يمت اليه بسبب . ولكن الحق ان الكتاب معلمة واسعة ، وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي المتشعبة الاطراف .

فقد حوى الكتاب طائفة صالحة من المعارف الطبيعية ، والمسائل الفلسفية ، كما تحدث في سياسة الاقوام والافراد ، وكما تكلم في نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية .

وتحدث الكتاب في كثير من المسائل الجغرافية وفي خصائص كثير من البلدان ، وفي تأثير البيئة في الحيوان والانسان والشجر ، كما تناول الحديث في الاجناس البشرية وتباينها . وكما عرض لبعض قضايا التاريخ .

---

(١) الحيوان : ج١، ص ٢٨-٢٩ .

وفيه كذلك حديث عن الطب والامراض : أمراض الحيوان والانسان ، وبيان لكثير من المفردات الطبية ، نباتيها ، وحيوانيها ومعدنيها .

وتحدث فيه الجاحظ عن العرب والاعراب وأحوالهم وعادهم[١] ومزاعمهم وعلومهم ، كما أفاض القول في آي الكتاب العربي ، وحديث الرسول العربي ، وكما فصل بعض مسائل الفقه والدين .

والكتاب كذلك ديوان جمع الصفوة المختارة من حر الشعر العربي ونادره ، وناهيك باختيار أبي عثمان ؟ وإن أردت الامثال فهو قد جمع منها القدر الكبير ، أو أحببت الحديث في البيان ونقد الكلام والشعر وجدت ما ترتاح اليه نفسك وتطمئن .

أما فكاهة الجاحظ فهذه قد نثرت في الكتاب نثراً . وإنها لتطالعك بين الفينة والاخرى متمثلة فيما يروي من نادرة أو يحكي من قصة .

وأما المجون فلا عليك أن تمر به لتظهر لك ناحية من النواحي التي غلبت على كثير من متأدبي عصر الجاحظ التي لم يكن فيها حرج حينئذ ولا خشية . »

من هذا العرض الوجيز تتضح قيمة الكتاب بوصفه مصدراً جليلا للدراسات الادبية والاجتماعية والعلمية على اختلاف مناحيها . ومن

---

(١) عاد : جمع عادة .

حسن الحظ ان هذا الكتاب الفخم قد زوّد في طبعته الاخيرة بفهرس سماه المحقق (فهرس المعارف) . وهو فهرس لطيف يعين الباحث على الوصول الى طلبته في الكتاب بأهون جهد وأقصر وقت .

كتاب البيان والتبيين [١] .

كما كانت دراسة الحيوان ، وذكر فصائله ، وبيان طبائعه ، والتنبيه على مافيه من دلائل على حكمة الخالق وعظيم قدرته ، الفكرة الموجهة في **كتاب الحيوان** ، كذلك كان **البيان** - أي : ظهور المعاني القائمة في النفس بوساطة إحدى الدلالات أو الوسائل التعبيرية - ، **والتبيين** - أي : قدرة الإنسان على الإفصاح عن أفكاره وإظهارها بوضوح - ، الفكرةَ الموجهة في **كتاب البيان والتبيين** . وهذا الكتاب قد ألفه الجاحظ ، كما ذكرنا آنفاً ، في أواخر حياته ، بعد أن انتهى من تصنيف **كتاب الحيوان** .

وفي هذا الكتاب مباحث كثيرة ، عظيمة القيمة ، دقيقة الدلالة ، تتصل بمفاهيم البيان والفصاحة والبلاغة . فالجاحظ يتناول بحديثه الالفاظ ، فيتكلم على شروط فصاحتها ، ومخارج حروفها ، وعجز

(١) طبع (البيان والتبيين) عدة طبعات ، أجودها الطبعة الاخيرة التي ظهرت في مصر في أربعة أجزاء بين عامي ١٣٦٧-١٣٧٠هـ . (١٩٤٨-١٩٥٠م) بتحقيق عبدالسلام هارون .

بعض الناس عن النطق بها على الوجه الصحيح . وما يعتريها من لكنة على ألسنة الاعاجم أو مجاوريهم من العرب ، والفرق بين ألفاظ البدو والحضر ، وأسباب اختلاف اللهجات بين الأمصار .. ويخوض كذلك في حديث البيان والبلاغة : فيبحث في الافكار ووسائل التعبير عنها ، وعلاقة مظهر المتكلم ببيانه ، وأثر البيئة والصناعة فيه ، ووجوب التناسب بين اللفظ والمعنى ، وقيمة تنقيح الكلام ، وسوء مغبة هذا التنقيح إذا تجاوز الحد الوسط ، ومفهوم البلاغة عند الامم المختلفة ، وبلاغة المعتزلة أئمة الكلام ، وبلاغة الكتاب والنساك والزهاد والقصاص .. ويتناول الشعر والشعراء ، والخطابة والخطباء بأحاديث كثيرة في مواضع مختلفة من الكتاب : فيتحدث في صفات الشعر الجيد ، ومذاهب الشعراء في تنقيحه ، وأثره الاجتماعي ، وصعوبة الجمع بين بلاغة الشعر وبلاغة القلم ، والشعراء وأزيائهم وطبقاتهم واختلافهم في قوة الطبع ودقة الصنعة . ويذكر مقومات الخطابة ، وموضوعاتها الاساسية ، واختلاف مكانتها باختلاف العصور والأمم وأثرها في النفوس ، وأزياء الخطباء وعاداتهم في خطابتهم ، والمشهورين منهم في الجاهلية والاسلام . . . وما أشبه ذلك من المباحث التي هي من صميم البلاغة والنقد والادب .

ولعلَّ نقطة الانطلاق في هذا الكتاب رغبة الجاحظ في الثبات أمام دعاة الشعوبية ، وتوضيح ما للعرب من مزايا في لغتهم وبيانهم

وبديهتهم وسرعة خاطرهم . ذلك أن المفاضلة بين العرب وسواهم في هذا الباب كانت من المسائل التي عني بها الشعوبيون وخصومهم . وكان في جملة ما يأخذه على العرب خصومهم استعاتهم أثناء الخطابة بالعصيّ والمخاصر [١] ، واعتمادهم على القسيّ ؛ وكأنما كان ذلك في نظرهم دليلاً على عجزهم وقصورهم وحداثة عهدهم بالحضارة . ومثل هذه السفاسف والاعتبارات السخيفة تبين لنا الدرك الذي كان يتهافت نحوه الجدل الشعوبي أحياناً .

وقد دافع الجاحظ عن العرب وبيانهم في كتابه هذا دفاعاً جميلاً ؛ فتكلم على خطابتهم ، وكتابتهم ، وشعرهم . ولهجاتهم ، ونوادرهم ، ومناظراتهم ، ورويتهم ، وبديهتهم ، وذكر عدداً من شعرائهم وخطبائهم وكتّابهم ، مختاراً لهم من أقوالهم مقداراً ضخماً ؛ وأشاد بما جبل عليه العرب من بلاغة وقوة عارضة في باديهم وحاضرهم . ولعلّ دفاعه عن البيان العربي أشد ما يكون وضوحاً في باب مسهب من أبواب كتابه سماه : **باب العصا** ، أراد أن يردّ فيه على تُرّهات الشعوبية حين أخذوا على العرب استعمالهم العصي والقسي في خطابتهم .

ومن الدلائل على أن الرد على الشعوبية في هذا المعنى كان من الحوافز الاساسية على تأليف هذا الكتاب ، أننا نرى الجاحظ في

---

(١) المخصرة : قضيب أو عصا يكون مع الخاطب اذا تكلم . والجمع مخاصر .

مفتتح الجزء الثاني منه يقول :[١] « أردنا أبقاك الله أن نبتدئ صدر هذا الجزء من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب ، إذ وصلوا أيمانهم بالمخاصر ، واعتمدوا على وجه الارض بأطراف القسيّ والعصيّ ، وأشاروا عند ذلك بالقضبان والقنا ؛ وفي كل ذلك قد روينا الشاهد الصادق والمثل السائر . ولكننا أحببنا أن نصدّر هـذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين ، والسلف المتقدمين ، والجلة من التابعين ... » ولكن هذا الكلام المختار الذي يحب الجاحظ أن يصدر به الجزء الثاني ، لا يلبث أن يتدفق ، ويأخذ بعضه برقاب بعض ، حتى يعمّ ذاك الجزء بتمامه . فاذا ما بلغ المؤلف الجزء الثالث من كتابه عاد فافتتحه بقوله[٢] : « هذا . أبقاك الله تعالى الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين . . . ونبدأ ، على اسم الله تعالى ، بذكر الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية[٣] ، وبمطاعنهم على خطباء العرب بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم . بالموزون المقفى والمنثور الذي لم يقفّ ... »

ويأخـذ الجاحظ في تفصيل كلام الشعوبية في هذا المعنى ، وأنهم

(١) البيان والتبيين : ج٢، ص٥ .

(٢) البيان والتبيين : ج٣، ص٥—٦ .

(٣) يسمى الشعوبيون أحياناً بأهل التسوية لان ظاهر دعوتهم كانت المطالبة بالتسوية بين العنصر العربي والعناصر الاخرى .

يرون أنه ليس بين الكلام وبين العصا سبب ، ولا بينه وبين القوس نسب ، وأن أمم الفرس والروم والهند . على إعراقها في المنطق وبعد شهرتها في البيان ، لا يلجأ خطباؤها الى شيء مما يلجأ إليه خطباء العرب في خطبهم . « فكيف سقط على جميع الامم من المعروفين بتدقيق المعاني وتخير الالفاظ وتمييز الامور ، أن يشيروا بالقنا والعصي والقضبان والقسي ؟ كلا . ولكنكم كنتم رعاة بين الابل والغنم فحملتم القنا في الحضر ، بفضل عادتكم لحملها في السفر ، وحملتموها في المدر بفضل عادتكم لحملها في الوبر ، وحملتموها في السلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب [1] » ويمضي الجاحظ في تفصيل آراء الشعوبية ومزاعمهم على هذا النسق حتى اذا انتهى من عرضها عمد الى الرد عليها . فبين أولا أن اليونانيين إنما كانوا أصحاب فلسفة ومنطق لا أصحاب خطابة ؛ وأن الهنود كانوا أصحاب حكمة وأدب قبل كل شيء ؛ وأنه لم يشتهر بالخطابة حقاً إلا العرب والفرس ، ثم بين الفرق بين خطابة الفرس وخطابة العرب فقال [2] : « ان كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فانما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد وخلوة . وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب . وحكاية الثاني علم الاول ،

---

(١) ج ٣ ، ص ١٤ .

(٢) ج ٣ ، ص ٢٨ .

وزيادة الثالث في علم الثاني ؛ حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم . وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام وليست هناك معاناة ، ولا مكابدة . ولا إجالة فكرة . ولا استعانة[١] .. »

ثم يعنف الجاحظ بالرد على الشعوبية حين يقول :[٢] « فتفهم عني ـ فهمك الله ـ ما أنا قائل في هذا . واعلم أنك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشدّ استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصباً ، ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طولُ جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقدّ نار الشنآن في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة . ولو عرفوا أخلاق كلّ ملة ، وزي كلّ لغة ، وعللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ، ولم اختاقوه ، ولم تكلفوه لأراحوا أنفسهم ، ولخفّت مؤونتهم على من خالطهم . »

ويستمرّ الجاحظ بعد ذلك في دفاعه عن الخطباء العرب في أخذهم العصا ، مقيماً الدليل من آي القرآن الكريم ، والشعر ، والاخبار على « أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم ومعدن شريف » مستطرداً في

---

(١) حبذا لو أن العرب أقل بديهة وارتجالا ، وأحرص على طول التفكر والاجتهاد في جميع أمورهم .

(٢) البيان والتبيين: ج٣، ص٢٩-٣٠ .

كلامه الثرّ المتدفق من حديث الى حديث ، ومن باب الى باب حتى نهاية الكتاب .

كل هذا يصحّ ان يكون دليلاً على ان البيان والتبيين انما هو في مضمونه وغايته كتاب في الدفاع عن البيان العربي في مختلف مظاهره.

أما طريقة الجاحظ في كتابه هذا فهي كطريقته في كتابه الحيوان من حيث الاستطرادُ ، والتنقلُ في الباب نفسه ،او من باب إلى آخر، من جدّ إلى هزل ، ومن خبر الى شعر ، ومن خطبة الى موعظة اوقصة او نادرة ، وعدم الاستمرار طويلاً في موضوع بعينه[1] . على ان الطابع الأدبي في البيان والتبيين اوضح منه في الحيوان ؛ كما ان مايتضمنه من الشعر والخطب والرسائل والمباحث اللغوية والبلاغية اغزر .ومن هذه الناحية كان هذا الكتاب يفوق الحيوان بوصفه مصدراً للدراسات الأدبية واللغوية ،وان كان دونه من حيث دلالته على الحياة الاجتماعية والعقلية في العصر العباسي الأول .

---

(١) يقول الجاحظ في (البيان والتبيين) يذكر طريقته في تأليفه : « قد يجري السبب فيجرى معه بقدر مايكون تنشيطاً لقارىء الكتاب،لان خروجه من الباب اذا طال لبعض العلم الكلام ،كان ذلك أروح على قلبه،وأزيد في نشاطه» البيان والتبيين: ج١، ص١٨٦ .

كتاب الكامل للمبرد[١] :

ومن أشهر الكتب الادبية التي ظهرت في القرن الهجري الثالث كتاب الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد الثمالي الملقب بالمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ ﻫ . والمبرد امام العربية ببغداد كما يقول ياقوت[٢] وزعيم المذهب البصري في اللغة والنحو في عصره . كان واسع الاطلاع على مختلف مناحي الثقافة العربية من لغة ، وشعر ، ونثر ، وأخبار ، والف عدداً من المصنفات في اللغة والنحو والصرف والعروض والقوافي والنقد والبلاغة والاخبار ، أشهرها كتاب الكامل الذي نحن بصدده[٣] .

والكامل كتاب أدب ، طبقاً لمفهوم هذا النوع من الكتب كما عرضنا لبيانه في مفتتح هذا الفصل . فهو كتاب ثقافة أدبية عامة ، مع ميل شديد الى إيراد النماذج المختارة من الشعر الجميل ، والنثر البليغ ، والاحاديث المأثورة ، والاخبار الطريفة . وهو ككتابي الجاحظ الآنفي الذكر ، كثير التنقل من موضوع إلى آخر ، قلما يستقر طويلاً على فكرة

---

(١) طبع الكامل لوحده أكثر من مرة . كما طبع مع شرح المرصفي عليه المسمى (رغبة الآمل من كتاب الكامل) في ٨ أجزاء ، بين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٠ .

(٢) معجم الادباء : ج١٩ ، ص١١٢ .

(٣) أنظر مصنفات المبرد في معجم الادباء : ج١٩ ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

واحدة . و كثيراً مانرى المبرد ـ شأنه في ذلك شأن الجاحظ قبله ـ يصرح بتعمده هذا التنقل والاستطراد ، كقوله مثلاً في مطلع أحد أبواب كتابه [١] : « قال أبو العباس : نذكر في هذا الباب من كل شيء شيئاً لتكون فيه استراحة للقارىء ، وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف ونخلط مافيه من الجد بشيء من الهزل ، ليستريح اليه القلب وتسكن اليه النفس ... » فإذا انتقل إلى الباب الذي يليه بدأه بقوله : [٢] « قال أبو العباس : وهذا باب طريف نصل به هذا الباب الجامع الذي ذكرناه ، وهو بعض مامر للعرب من التشبيه المصيب ، والمحدثين بعدهم . » وينتقل من ثم الى باب ثالث يقول في أوله : [٣] : « باب تجتمع فيه طرائف من حسن الكلام وجيد الشعر وسائر الامثال ومأثور الأخبار إن شاء الله ... » كل هذا دليل على أن تقسيم الكتاب الى أبواب إنما هو نوع من التنظيم الشكلي الظاهري، وأن كل باب من أبواب الكتاب إنما هو عبارة عن مجموعة من المختارات في موضوعات ومعان مختلفة . نعم . إن بعض الابواب القليلة في الكتاب نراها معقودة على نوع واحد من الاخبار أو المختارات ، مثل الباب السابع والاربعين في بعض مامر للعرب من التشبيه المصيب؛ والمحدثين بعدهم، ومثل الباب

(١) هو الباب ٤٦ الذي يبدأ به الجزء الثاني .

(٢) أنظر الباب ٤٧ من (الكامل) : ج٢، ص٣٥ .

(٣) أنظر الباب ٤٨ من (الكامل) : ج٢، ص ١٠١ .

التاسع والاربعين من أخبار الخوارج . ولكن هذه الابواب نفسها ليست في الحقيقة سوى مجموعات من المختارات والاخبار وضعت على غير نسق أو نظام، وليس يجمع بينها سوى الفكرة العامة المسيطرة على الباب . بل كثيراً مانرى المؤلف خلال هذه الابواب ذاتها يستطرد الى أخبار ، أو يورد مختارات لاصلة لها بالافكار العامة التي بنيت هذه الابواب عليها . ذلك أن المبرد في كتابه هذا كان أديباً قبل كل شيء ، ولم يكن مؤرخاً فحسب أو ناقداً أو لغوياً . فهو في باب الخوارج لا يؤرخ لهذه الجماعة ، ولا يبحث في عقائدها ومبادئها بحث علم وتحقيق، وإنما الذين يعنيه أن يذكر من أفرادها من كان ذا خبر طريف واتصلت به حكم من كلام وأشعار .

ومع هذا فبين كتاب المبرد هذا وكتابي الجاحظ اللذين سبق ذكرهما فروق يمكن اجمالها في الملاحظتين التاليتين :

١ — كتاب الكامل أضيق أفقاً من كتابي الجاحظ . فكتب الجاحظ بوجه عام أشد اتصالاً بالثقافات الأجنبية من يونانية وفارسية وهندية ، وأعمق تغلغلاً في الحياة الاجتماعية المعاصرة ، واكثر اهتماماً بمذاهب الحياة الفكرية المتنوعة في القرن الثالث ، ولاسيما المذاهب الفلسفية والعلمية . أما كتاب الكامل فيكاد يكون صورة للثقافة العربية الصرف في عصر المؤلف ، بكل مايتصل بها من شعر ونثر

وأخبار ولغة ونحو وصرف [١] .

٢ ــ كتاب الكامل كتاب أدب صبغ بصبغة نحوية واضحة لا نكاد نلمح لها أثراً في كتابي الجاحظ. ذلك أن المبرد كان كما رأينا إمام العربية في عصره وزعيم مدرسة البصرة في اللغة والنحو . ولذا لم يكن لكتابه بدّ من أن تسيطر عليه نزعة المؤلف اللغويّة واهتمامه بالمباحث النحوية والصرفية . وقد قصد المؤلف الى كلّ هذا في كتابه قصداً كما يتضح من قوله في المقدّمة [٢] : «هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور ، وشعرٍ مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة . والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً وافياً ،حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً وعن أن يرجع إلى أحدٍ في تفسيره مستغنياً . » ومعنى هذا أن كتاب الكامل كتاب لغة ونحو وصرف قد بُثّ بحنكة وبمقادير مرسومة في تضاعيف مجموعة من النماذج الأدبية الجميلة. وبعبارة ثانية هو كتاب تعليمي يرمي إلى تزويد قارئه بثقافة أدبية عربية متينة ، وإطلاعه على أسرار

---

(١) وهذا هو الرأي الذي اتجه اليه الاستاذ أحمد أمين رحمه الله في كتابه (ضحى الاسلام): ج١، ص٣١٤ .

(٢) أنظر (الكامل): ج١، ص٢ .

اللغة العربية وقواعدها الدقيقة من خلال النصوص المختارة. وهي بلا ريب طريقة مثلى في دراسة الأدب واللغة معاً .

والكتاب ، بعد ، مصدر جليل من مصادر اللغة والأدب والتاريخ لغزارة ما انطوى عليه من بحوث ومختارات وأخبار في هذه الموضوعات

عيون الاخبار لابن قتيبة[1] :

وأخيراً لا بدّ لنا ، ونحن نتكلم على كتب الأدب الشهيرة التي ظهرت خلال القرن الثالث ، من أن نذكر كتاب **عيون الاخبار** لمؤلفه عبدالله ابن مُسلم بن قتيبة الدينوري المتوفي سنة ٢٧٦ هـ . وابن قتيبة من أعلام القرن الثالث ، ومن الممثلين البارزين لثقافته الخصبة الخيرة . وكان كالجاحظ يجمع بين الثقافة العربية الصرف وثقافات الحضارة الإسلامية الأخرى ، كما كان مثله كثير التصنيف في أنواع العلوم ، فألف في القرآن والحديث والكلام والفقه والأخلاق والتاريخ والنحو واللغة والأدب[2] . على أن عناية ابن قتيبة بالعلوم الإسلامية واللغوية كانت

---

(١) طبع (عيون الاخبار) في ٤ أجزاء، في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة بين عامي ١٩٢٥—١٩٣٠ .

(٢) أنظر ثبتاً بأسماء مؤلفات ابن قتيبة في الجزء الرابع من (عيون الاخبار)، ص١٩—٣٨ .

أعظم من عناية الجاحظ بها ؛ بينما كان الجاحظ أميل منه إلى الدراسات الأدبية والاجتماعية ، فخصها بقسط وافر من اهتمامه.

يتحدث ابن قتيبة في خطبة عيون الأخبار مبيناً غرضه من تأليف الكتاب فيقول : « إني كنت تكلفت لمغفل التأديب من الكتاب كتاباً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد ... وشرطت عليه مع تعلّم ذلك تحفظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كاتَبَ ، ويستعين بما فيها من معنى لطيف ولفظ خفيف حسن إذا حاور . ولما تقلدت له القيام ببعض آلته ، دعتني الهمة الى كفايته . وخشيت إن وكلته فيما بقي إلى نفسه ، وعوّلت له على اختياره أن تستمرّ مريرته على التهاون ... فأكملت له ما ابتدأت ... » فكلام ابن قتيبة واضح في أنه أراد من تصنيفه هذا الكتاب تزويد الكاتب الناشىء ، أو القارىء بوجه عام بما يحتاج إليه في حديثه وكتابته من ثقافة أدبية واسعة ، وذلك بعد أن بدأ فألف له أدب الكاتب الذي طواه على مسائل لغوية وإملائية يحتاج إليها لتقويم لسانه ويده . ولهذا خلا كتاب عيون الأخبار من المباحث اللغوية الصرف ، واقتصر على إيراد الأخبار والمختارات الجميلة في كثير من المعاني الهامّة .

والكتاب غزير المادة ، متنوع الالوان . شأن غيره من الكتب الأدبية . وإذا امتاز هذا الكتاب من الكتب التي ذكرناها قبله بشيء فبكونه يمثل خطوة في التنظيم نفتقدها في تلك الكتب . ذلك أن ابن

قتيبة مافتىء منذ حداثته يتلقط مادة كتابه من جلسائه وإخوانه ومن كتب الاعاجم وسيرهم. ومن بلاغات الكتاب في فصول من كتبهم [١]، حتى تجمع لديه منها قدر عظيم. ثم شرع في تصنيف هذه المواد أبوابا، فجمع في كل منها الاخبار المتماثلة، والاشعار المتشاكلة فصارت في أربعة عشر كتاباً، فأفرد منها أربعة أخرج كلا منها في كتاب مستقل، وهي: كتاب **الشعر والشعراء**. وكتاب **المعارف**، وكتاب **الشراب**، وكتاب **تأويل الرؤيا**، ثم جمع عشرة الكتب الباقية في هذا الكتاب الضخم الذي سماه **عيون الاخبار**. [٢] وهذه

---

(١) يقول ابن قتيبة في مقدمة (عيون الاخبار): «واعلم أنا لم نزل نتلقط هذه الاحاديث في الحداثة وفي الاكتهال عمن هو فوقنا في السن والمعرفة، وعن جلسائنا واخواننا، ومن كتب الاعاجم وسيرهم، وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم، وعمن هو دوننا، غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سناً لحداثته، ولا عن الصغير قدراً لخساسته، ولا عن الامة الوكعاء لجهلها، فضلاً عن غيرها، فان العلم ضالة المؤمن، من حيث أخذه نفعه».

(٢) يقول ابن قتيبة في المقدمة: «وهذه عيون الاخبار. نظمتها لمغفل التأدب تبصرة، ولأهل العلم تذكرة... وصنفتها أبواباً، وقرنت الباب بشكله، والخبر بمثله، والكلمة بأختها، ليسهل على المتكلم علمها، وعلى الدارس حفظها، وعلى الناشد طلبها... وإني حين قسمت هذه الاخبار والاشعار وصنفتها، وجدتها على اختلاف فنونها وكثرة عدد أبوابها تجتمع في عشرة كتب، بعد الذي رأيت افراده عنها، وهو أربعة كتب متميزة، كل كتاب منها مفرد على حدته: كتاب الشراب، وكتاب المعارف، وكتاب الشعر، وكتاب تأويل الرؤيا...» وسيأتي

الابواب العشرة التي يتألف منها الكتاب هي كتب: **السلطان ، والحرب والسؤدد ، والطبائع والاخلاق ، والعلم ، والزهد . والاخوان ؛ والحوائج والطعام والنساء** . فالكتاب من هـذه الوجهة يمتاز بشيء من التنظيم والتبويب .

وقلما نجد لابن قتيبة في أحد هذه الابواب فكرة خاصة أو بحثاً شخصياً ، إذ ليس الباب سوى مجموعة من الاخبار المنقولة المتصلة بالمعنى الذي بني عليه ، مع جملة من النوادر والاشعار المشاكلة لتلك الاخبار . كما أنه قلما نلمح فيه نسقاً مطرداً أو بحثاً متماسكا ، وإنما هو التنقل والوثب والاستطراد كما هي الحال في **البيان والتبيين أو الكامل**. ولعلّ ابن قتيبة كان يتعمد هذا الاسلوب، جرياً على عادة مؤلفي كتب الادب قبله ، ليستمتع بكتابه جميع الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم . فهو يقول في مقدمة كتابه « ولم أر صواباً أن يكون كتابي هذا وقفاً على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ، ولا على خواص الناس دون عوامهم، ولا على ملوكهم دون سوقتهم ، فوفيت كل فريق منهم قسمه ، ووفرت عليه سهمه ، وأودعته طرفاً من محاسن كلام الزهاد

الحديث عن كتاب (الشعر والشعراء) في الفصل القادم . أما كتاب (الشراب) أو كتاب (الاشربة) فقد نشره المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٦٦هـ بتحقيق المرحوم الاستاذ محمد كرد علي. وأما كتاب (تأويل الرؤيا) فيظهر أنه مفقود. أما كتاب (المعارف) فقد طبع في مصر سنة ١٣٥٣هـ .

في الدنيا ... ولم أخله مع ذلك من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة ؛ لئلا يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون ، وعروض أخذ فيه القائلون . ولأروّح بذلك القارىء من كدّ الجدّ وإتعاب الحقّ . فإن الأذن مجاجة ، وللنفس حمضة . والمزح إذا كان حقاً أو مقارباً ، ولأحايينه وأوقاته وأسباب أوجبته مشاكلاً ليس من القبيح وليس من المنكر ، ولا من الكبائر ، ولا من الصغائر إن شاء الله .. وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . » ومثل هذا الكلام يذكرنا بكلام الجاحظ في **الحيوان والبيان والتبيين** .

وكتاب ابن قتيبة ، كالكتب التي سبق ذكرها ، من أجلّ مصادرنا الأدبية ،وأغزرها بالمعارف، وأحفلها بالاخبار. ويمتاز بحسن التبويب الذي يجعله قريب المتناول ، ويعين القارىء على الوصول إلى مبتغاه فيه بكثير من اليسر .

وقد كان لمؤلفات ابن قتيبة عامة ، **وعيون الاخبار** خاصة ، شهرة كبيرة في القرن الثالث والعصور التي تلته . وانتقلت هذه الشهرة من المشرق إلى المغرب ، حتى كان أهل الأندلس لا يثقون بعلم من خلت مكتبته من مؤلفات ابن قتيبة . وهذه الشهرة هي التي حملت ابن عبد ربه الأديب الأندلسي المعروف أن ينسج على منواله ، فيؤلف

كتابه العقد الفريد الذي سنتحدث عنه في معرض كلامنا على أشهر الكتب الادبية المؤلفة في القرن الهجري الرابع .

أشهر كتب الأدب في القرن الهجري الرابع :

استمرت حركة تأليف دواوين الادب في القرن الرابع ، واتسع نطاقها ، فاهتم بها أدباء المغرب والاندلس الذين لاقت لديهم كتب المشارقة رواجاً كبيراً . ولعلّ أشهر كتب الادب في هذا القرن اثنان قدر لهما كليهما أن يبصرا النور في قرطبة ، حاضرة الاندلس ، وقرن بغداد في ذلك الطرف الآخر من العالم العربي الاسلامي ، وهما : كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وكتاب الامالي لأبي علي القالي . وسنخصهما بالحديث فيما يلي :

العقد الفريد [1] :

كان الاندلسيون ينظرون الى المشرق نظرة ملؤها الحنين والإعجاب فيسمون مدنهم وقصورهم بأسماء مدن المشرق ولا سيما مدن الشام [2] ،

---

(١) احدث طبعات «العقد الفريد» اثنتان . الاولى: في ٨ اجزاء بتحقيق محمد سعيد العريان، طبعت في مطبعة الاستقامة بمصر عام ١٩٤٠ ، وهي الطبعة التي اعتمدناها فيهذه الدراسة. والثانية: في ٧ اجزاء بتحقيق احمد امين وزملائه بدىء بطبعها بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر عام ١٩٤٠ ايضاً .

(٢) من امثلة هذا ان قصرين من قصور قرطبة كان يسمى احدهما «الدمشق»

ويتلقون آداب المشارقة وعلومهم ، فيحذون حذوها في شعرهم ونثرهم وتصانيفهم . والعقد الفريد مثال واضح من أمثلة إعجاب الاندلس بالمشرق وسيره على نهجه .

ألف ابن عبد ربه [1] كتابه في الاندلس بعد ظهور كتاب **عيون الأخبار** في المشرق بنصف قرن أو أكثر [2] . والقارىء للكتابين لا يستطيع إلا أن يخرج بالفكرة التالية ، وهي أن ابن عبد ربه قد قرأ **عيون الأخبار** فأعجب به وبطريقته ، وأراد أن يصنع على مثاله كتاباً للأندلسيين أوفى بالحاجة وأحسن تنظيماً وتبويباً .

وطريقة ابن عبد ربه ، كما يحدثنا عنها في مقدمة كتابه ، هي طريقة ابن قتيبة ذاتها ، من حيث جمع الاخبار وتلقطها من هنا وهناك ، ثم تصنيفها في أبواب بحسب معانيها العامة . قال ابن عبد ربه في مقدمة

والثاني « الرصافة » وان احد ابوابها كان يسمى باب «جيرون» . ذكر ذلك المقري في «نفح الطيب» .

(١) هو احمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي الاندلسي ، توفي في خلافة الناصر سنة ٣٢٨ هـ وقد تجاوز الثمانين . كان اديباً شاعراً ، وقد بث في ابواب كتابه «العقد الفريد» كثيراً من شعره .

(٢) يرى الاستاذ محمد سعيد العريان محقق «العقد الفريد» ان ابن عبد ربه فرغ من تأليف كتابه قريباً من سنة ٣٢٢ هـ أي قبل موته بست سنين تقريباً . ويعتمد في تقديره هذا على ارجوزة ابن عبد ربه في مغازي عبد الرحمن الناصر التي فصل فيها اخباره حتى ذلك التاريخ .

العقد الفريد : « وقد ألفت هذا الكتاب، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ، ولباب اللباب . وإنما لي فيه تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش لدور كل كتاب[1] . وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء .... فتطلبت نظائر الكلام ، وأشكال المعاني ، وجواهر الحكم ، وضروب الادب ، ونوادر الامثال . ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه ، فجعلته باباً على حدته ، ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ، ونظيره من كل باب . » وهذا الكلام يشبه الى حد كبير ما قاله ابن قتيبة في **عيون الأخبار** .

ويخيل إلينا أن ابن عبد ربه ، وإن لم يصرح باسم ابن قتيبة . فقد كان يعنيه أكثر من سواه حين أشار في مقدمة كتابه الى مؤلفي كتب الادب قبله ، والى رغبته في أن يكون كتابه أكمل من كتبهم ؛ وذلك حين يقول : « وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الاخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار . فجعلت هذا الكتاب كافياً ، جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة . وحليت كل كتاب

---

(١) المقصود بالفرش هنا مايقدمه المؤلف من كلامه بين يدي كل كتاب، ممهداً به لذكر الاخبار والمختارات التي ينطوي عليها .

منها بشواهد من الشعر تجانس الاخبار في معانيها ، وتوافقها في مذاهبها . وقرنت بها غرائب شعري ، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته، وبلدنا على انقطاعه ، حظاً من المنظوم والمنثور »

صنف ابن عبد ربه كتابه في خمسة وعشرين باباً ، بينها وبين أبواب **عيون الأخبار** العشرة شبه كبير . فهنالك سبعة أبواب مشتركة بين الكتابين هي : **السلطان** ، **والحروب** ، **والعلم والأدب** ، **والمواعظ والزهد** ، **والطبائع** ، **والطعام** ، **والنساء** . كما أن عدداً آخر من أبواب **العقد** نجده مفرقاً في تضاعيف بعض أبواب **عيون الأخبار** . فكتاب **الأجوبة** ، و كتاب **الخطب** ـ وهما الكتابان الثاني عشر والثالث عشر من **العقد** ـ كلاهما من موضوعات كتاب **العلم** في **عيون الأخبار** . و كتاب **مخاطبة الملوك** ـ وهو الكتاب الخامس من **العقد** ـ فرع من فروع كتاب **السلطان** في **عيون الأخبار** . و كتاب **أخبار زياد والحجاج والطالبيين** ـ وهو الكتاب السادس عشر من **العقد** ـ معنى من معاني كتاب **الحروب** في **عيون الأخبار** . وأخبار **البخلاء والطفيليين** ـ التي تؤلف الكتاب الثاني والعشرين من **العقد** ، نجد ما يماثلها في كتاب **الطعام** من **عيون الأخبار** . . كل هذا يؤكد سير الاديب الاندلسي على نهج سلفه البغدادي كما قدمنا .

ومن ابتكارات ابن عبد ربه في كتابه ـ وهو ابتكار ينسجم مع ذوق الاندلسيين وعنايتهم بالزينة والزخرف ـ أنه سمى كل بابٍ من

الابواب الاثني عشر الاولى في كتابه باسم جوهرة من الجواهر الكريمة فهو يقول مثلا : كتاب **اللؤلؤة** في السلطان ، و كتاب **الفريدة** في الحروب ، و كتاب **الزبرجدة** في الاجواد والاصفاد[1] ، و كتاب **الجمانة** في الوفود ، الخ .. وسمى الكتاب الثالث عشر باسم **الواسطة** ، وهي الحبة الوسطى في العقد . وسمى الابواب الباقية ، من الباب الرابع عشر حتى الباب الخامس والعشرين ، باسم الجواهر نفسها مكررة. فهو يقول : كتاب **المؤلؤة الثانية** في الفكاهات والملح ، وكتاب **الفريدة الثانية** في الطعام والشراب ، و كتاب **الزبرجدة الثانية** في طبائع الانسان وسائر الحيوان ، و كتاب **الجمانة الثانية** في المتنبئين والبخلاء والطفيليين ... الخ . من هنا عنوان الكتاب : **العقد الفريد**[2] ، إذ أن أبواب الكتاب تؤلف بمجموعها عقداً متناظراً ، تتوسطه الواسطة ، وتتقابل فيه الجواهر الكريمة من الطرفين .

و كتاب **العقد الفريد** ، وإن ظهر في الاندلس ، فانه لايختلف في الوانه الثقافية عن كتب الادب المشرقية . ولولا النماذج الكثيرة التي

---

(١) الاصفاد جمع صفد ـ بفتح الفاء ـ وهو العطاء .

(٢) يذهب بعض الباحثين الى ان اسم الكتاب في الاصل « العقد » ، وان وصفه بالفريد نعت متأخر ، ولهم على ذلك ادلة . وهذا في الاصل رأي المستشرق الالماني بروكلمان . أنظر في هذا الموضوع كتاب جبرائيل جبور « ابن عبد ربه وعقده » ، ص ٢٩ ـ ٣١ .

يأتي بها المؤلف من شعره الشخصي ويبثها هنا وهناك في مختلف أبواب كتابه ، ولولا بعض الاخبار الاندلسية القليلة التي يلقاها القارىء عرضاً متناثرة في مواضع قليلة من الكتاب ، لقلنا إن الكتاب بجملته صورة من صور أدب المشرق . وهذا مايفسر لنا القصة التي رواها ياقوت في معجم الادباء : قال ياقوت : « بلغني أن الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فحرص حتى حصل عنده . فلما تأمله قال : هذه بضاعتنا ردّت إلينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم ،وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا ، لاحاجة لنا فيه .فردّه .[1] » ولسنا نرى من سبب لهذه الصبغة المشرقية التي اصطبغ بها الكتاب سوى اعجاب الاندلسيين آنذاك بالمشرق ،أدبه وأدبائه ، وحرصهم على أن يحذوا حذو الأدباء المشارقة في تآليفهم .

ولكن مهما يكن للصاحب بن عباد من رأي في العقد . فإن لهذا الكتاب في نظر الباحثين والأدباء قيمة كبيرة بوصفه مصدراً غنياً من مصادر تراثنا الأدبي العربي في المشرق . وليس لسخط الصاحب من سبب سوى أنه كان يطمع أن يرى في الكتاب صورة لأدب المغرب والاندلس فخاب ظنه . ولو أن الكتاب ظهر في ذلك العصر في بغداد، أو قام على تصنيفه أحد أدباء المشرق ، لما قابله الصاحب بشيء من هذا

---

(١) معجم الادباء : ج٤، ص ٢١٤–٢١٥ .

الحرد . يضاف إلى هذا أنه ـ على ما بين كتاب العقد وكتب الادب المشرقية من تشابه في الغرض والمنهاج والمادة ـ ليس في وسع أحد أن ينكر ما انفرد به هذا الكتاب من مادة أدبية وتاريخية ثمينة استقاها مؤلفه من كثير من الكتب التي أصبحت اليوم أثراً بعد عين . وهذا وحده كاف ليحفظ للكتاب مكانه الى جانب دواوين الأدب الاخرى بين مصادرنا الادبية القيمة .

كتاب الامالي للقالي (١) :

ربما كان ذكر كتاب **الامالي** لأبي علي القالي البغدادي (٢) من خير

---

(١) طبع كتاب « الامالى » في جزأين في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٦م ثم أعيد طبعه في القاهرة ايضاً سنة ١٩٥٥ . وألحق به جزء ثالث يتضمن «ذيل الامالي» و «النوادر» للمؤلف نفسه ، وجزء رابع يتضمن كتاب «التنبيه على اوهام ابي علي القالي في اماليه» لأبي عبيد عبد الله بن عبدالعزيز البكري الاندلسي المتوفي سنة ٤٨٧هـ .

هذا، ولأبي عبيد البكري نفسه كتاب آخر في شرح «الامالي» ونقدها اوسع من «التنبيه» سماه « اللآلي في شرح امالي القالي » وقد طبع هذا الكتاب بتحقيق الاستاذ عبدالعزيز الميمني الراجكوتي في مصر سنة ١٣٥٤هـ ١٩٣٦ م بعنوان « سمط اللآلي »، والحق به المحقق ذيلا عقب فيه على «ذيل الامالي» ، كما الحق به تصحيحات لطبعة «الامالي» افاد منها ناشروه عندما اعادوا طبعه . وقد صنع له المحقق فهارس قيمة على غرار مبتكر تسهل الافادة منه .

(٢) سبقت ترجمة أبي علي القالي في ص٢٤، حاشية «٢» .

مايختم به هذا الفصل ، لانه من أمتع الكتب الادبية ، وأغناها مادة وأضبطها رواية، وأدقها تحقيقاً. ولاغرابة في ذلك ، فقد عُرف المؤلف في عصره بصحة العلم وثقة الرواية حتى طبقت شهرته آفاق العالم الاسلامي آنذاك ، مما حمل الخليفة الاموي العظيم الناصر عبد الرحمن بن محمد أن يستدعيه من بغداد الى عاصمة ملكه قرطبة ليشرف على تأديب ولده وولي عهده الحكم ، وليذيع في حاضرة الاندلس ما كان يعيه في صدره من علم وأدب . وهناك في قرطبة ذاتها ، وفي المسجد الجامع بالزهراء أيضاً ، كان يجلس القالي كلّ خميس ليملي على طلابه دروساً ممتعة في الأدب، طافحة بالاخبار والأشعار والامثال والبحوث اللغوية الممتعة ، تلك الدروس التي تألف منها كتاب **الامالي** الذي نحن بصدده . وكان يملي دروسه من حفظه ، مسبقاً كل خبر أو شعر يرويه بأسناده ، على عكس مؤلفي الكتب الادبية قبله ، كالمبرد وابن قتيبة وابن عبد ربه ، الذين لم يكونوا يعنون بذكر أسانيدهم أو مصادرهم .

ولنستمع إلى أبي علي القالي يحدثنا عن مضمون أماليه ، وطريقته في املائها ، بعد أن يقص علينا حديث رحلته ، وحديث الخليفة العظيم الذي أفاء عليه رعايته وهيأ له أسباب تأليف كتابه . قال القالي في مقدّمة كتابه : « إني لما رأيت العلم أنفس بضاعة ، أيقنت أن طلبه أفضل تجارة . فاغتربت للرواية ولزمت العلماء للدراية . ثم أعملت ذهني في جمعه ، وشغلت ذهني بحفظه حتى حويت خطيره ، وأحرزت رفيعه،

وروبت جليله ، وعرفت دقيقه ، وعقلت شارده . ورويت نادره ، وعلمت غامضه ، ووعيت واضحه . ثم صنته بالكتمان عمن لا يعرف قدره . ونزهته عن الاذاعة عند من يجهل مكانه . وجعلت غرضي أن أودعه من يستحقه ، وأبديه لمن يعلم فضله ، وأجلبه الى من يعرف محله ... حتى تواترت الأنباء المتفقة ، وتتابعت الصفات الملتئمة ، التي لا تخالجها الشكوك ، ولا تمزجها الظنون ، بأن مشرّفه في عصره أفضل من ملك الورى ... أمير المؤمنين وحافظ المسلمين ، وقامع المشركين ، ودافع المارقين ... عبد الرحمن بن محمد ... فخرجت جائداً بنفسي ، باذلاً لحشاشتي ، أجوب متون القفار ، وأخوض لجج البحار ، وأركب الفلوات ، واقتحم الغمرات ... فمنّ الله جلّ وعزّ بالسلامة ، وحبا تعالى ذكره بالعافية ، حتى حللت بعصرة[1] الخوّاف ، وعصمة المضاف ، والمحلّ الممرع ، والربيع المخصب ، فناء أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد ... وصحبت الحيا المحسب[2] والجواد المفضل ، الذي اذا وعد وفى ، وإذا أوعد عفا .. الحكم ، فرأيته - أيده الله - أجل الناس بعد أبيه خطراً ، وأرفعهم قدراً ... فتابع الديّ النعمة ، وواتر اعلي الاحسان حتى ابديت ما كنت له كاتماً ... فأملت هذا الكتاب من حفظي في الاخمة بقرطبة

(١) العصرة : الملجأ .

(٢) الحيا : الغيث ، والمحسب : المجزل ، من قولهم : احسبه وحسبه - بتشديد السين - اذا آواه واطعمه وسقاه .

وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة • واودعته فنوناً من الاخبار ، وضروباً من الاشعار ، وغرائب من اللغات . على أني لم أذكر فيه باباً في اللغة إلا أشبعته ، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته ، ولا فناً من الخبر إلا انتحلته ، ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استجدته ، ثم لم أخله من غريب القرآن ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . على انني أوردت فيه من الابدال مالم يورده أحد ، وفسرت فيه من الاتباع[1] مالم يفسره بشر ، ليكون الكتاب الذي استنبطه إحسان الخليفة جامعاً ، والديوان الذي ذكر فيه اسم الامام كاملا . »

والكتاب في جملته مجموعة جد غنية من الاخبار والنصوص الجميلة ، ولاسيما الشعر النادر القيم الذي يدل اختياره على ذوق مرهف أصيل ورواية واسعة متنوعة . ويتخلل هذه الاخبار والنصوص شروح وتعليقات لغوية تدل على اطلاع واسع على اللغة العربية وخصائصها . وإذا كان كتاب **الكامل** للمبرّد كتاب أدب ونحو ، **فأمالي** القالي كتاب أدب ولغة .

أما طريقة الكتاب فهي الطريقة نفسها المتبعة في تأليف هذا النوع من الكتب ، من حيث الاستطراد المستمر ، وعدم الثبات على موضوع واحد . وربما كان كتاب **الامالي** من حيث مبناه أقرب إلى كتاب **البيان**

---

(١) بحوث الابدال والاتباع يجدها الطالب في الجزء الثاني من «الامالي».

والتبيين أو الكامل منه إلى عيون الاخبار أو العقد الفريد . ذلك أنه عبارة عن أمالٍ متتالية في اللغة والادب لم يحاول ممليها أن يصنفها في أبواب كما فعل ابن عبد ربه أو ابن قتيبة قبله .

***

هذا أشهر ماالف خلال القرنين الثالث والرابع ، في مشرق العالم العربي ومغربه ، من كتب الادب أو من دواوين الادب كما يسميها ابن خلدون .

وليس معنى هذا أننا جئنا في هذا الفصل على ذكر جميع الكتب المصنفة في هذا الفن ، وإنما لم يكن لنا بد من الاصطفاء في مثل هذا الكتاب المحدود في خطته ومرماه . وكان جديراً بنا أن نذكر هنا كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، فهو بلا ريب من أشهر كتب الادب في القرن الرابع واحفلها بالمعارف. ولكن منهاج ابي الفرج في كتابه هذا يختلف عن منهاج مؤلفي كتب الادب التي ذكرناها من بعض الوجوه ولذا رأينا أن نترك الكلام على هذا الكتاب إلى الفصل القادم بين مصادرنا الهامة في تراجم الشعراء .

واقتصارنا على الاشارة الى أشهر الكتب المؤلفة في القرنين الثالث والرابع لايفيد أن حركة التأليف في هذا المضمار قد توقفت فيما بعد ، بل لقد استمر التأليف على هذا النحو في أواخر القرن الرابع والقرون

التالية . وظهرت في هذا الباب مصنفات كثيرة معروفة. وما **أمالي** السيد المرتضى [١] **وأمالي** ابن الشجري [٢] ، **وزهر الآداب** للحصري القيرواني [٣] سوى بعض معالم التأليف في هذا الباب خلال القرنين الخامس والسادس . بل إن الموسوعات الادبية الضخمة التي ظهرت في عصور الانحطاط ، مثل **صبح الاعشى** للقلقشندي [٤] **ونهاية**

---

(١) هو الشريف ابو القاسم علي بن الحسين بن موسى اخو الشريف الرضي الشاعر المشهور، توفي ببغداد سنة ٤٣٦هـ. طبعت «اماليه» في مصر سنة ١٩٠٧م في اربعة اجزاء، ثم اعيد طبعها في جزأين بتحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم سنة ١٩٥٥

(٢) سبقت ترجمة ابن الشجري، كما سبقت الاشارة الى اماليه في ص ١١١، حاشية «١» .

(٣) ابو اسحق ابراهيم بن علي القيرواني، اديب مغربي من رجال القرن الخامس، توفي سنة ٤١٣هـ على اصح الاقوال. طبع كتابه لاول مرة طبعة مستقلة في ٤ اجزاء بعناية الاديب المصري المرحوم زكي مبارك عام ١٩٢٥م. ثم طبع ثانية في مصر سنة ١٩٥٤ في جزأين. ولهذا الكتاب ذيل اسمه «جمع الجواهر في الملح والنوادر» طبع في المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٥٣هـ .

(٤) هو احمد بن علي القلقشندي، نسبة الى قلقشندة احدى قرى مصر، وهو من ادباء مصر في القرن الهجري الثامن واوائل التاسع. توفي سنة ٨٢١هـ. وكتابه «صبح الاعشى في صناعة الانشا» من الموسوعات الادبية الجامعة التي عني بتصنيفها علماء ذلك العصر. والكتاب من حيث موضوعه يبحث في مقوّمات صناعة الانشاء، كما يجمع الاصول الثقافية التي لابد من معرفتها لمحترفي هذه الصناعة. وقد طبع الكتاب في مطبعة دار الكتب المصرية في ١٤ مجلداً بين وسنتي ١٩١٣ ١٩٢٠م «١٣٣١-١٣٣٨هـ» .

الارب للنويري [١] ، ليست سوى امتداد مضخم لحركة تأليف دواوين الادب حسب الطريقة التي وصفناها . ولكننا رأينا الاقتصار هنا على ذكر أشهر كتب الادب في القرنين الثالث والرابع لأنها أقدم عهداً وأكثر أصالة مما ظهر بعدها .

★★★

---

(١) هو شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب النويري، نسبة الى النويرة: قرية في مصر، وهو من ادباء مصر في اواخر القرن الهجري السابع واوائل الثامن، توفي سنة ٧٣٣هـ. وكتابه «نهاية الارب في فنون الادب» موسوعة ادبية ضخمة في ثلاثين مجلداً . بدأت دار الكتب المصرية اخراج هذا الكتاب عام ١٩٢٣، وقد ظهر منه حتى اليوم ١٨ مجلداً .

الفصل الثالث

كتب تراجم الادباء

كتب التراجم من المراجع التي لايكاد يستغني عنها الباحث ،لأن النابغين في كل علم وفنّ هم معالم تطور حياة الانسان الفكرية ، وتاريخهم تاريخها . يضاف الى هذا أن الكشف عن الاعلام التي يكثر ورودها في النصوص والوثائق يزيد هذه النصوص والوثائق وضوحاً ويقربها من الافهام .

ولقد كان من حق هذا الفصل أن نرجئه الى حين الكلام على الحركة التاريخية في الباب الثالث من هذا الكتاب . ولكننا رأينا استباق الامور ،وأن نخص كتب تراجم الادباء بفصل من هذا الباب المعقود على حركة التأليف في الادب ، لما بين هذه الكتب وبين حركة التأليف الأدبي من صلة واشجة . ففن تدوين التراجم فرع هام من فروع الحركة التاريخية ، ولكن تدوين تراجم الادباء ، مع ارتباطه الشديد بالمنهج التاريخي ، وثيق الصلة بالبحوث والدراسات الادبيه خاصة .

وقد عني أسلافنا بتدوين تراجم الرجال على اختلاف عصورهم

وأوطانهم ، وتنوّع طبقاتهم واختصاصهم . وسنرى المدى الذي بلغته عنايتهم هذه أثناء كلامنا في الباب القادم على الحركة التاريخية . ولعلنا لانبالغ إذا قلنا إن المكتبة العربية هي أغنى مكتبات الامم بكتب التراجم . وإن دلّ هـذا على شيء فعلى تقدير الثقافة العربية للفردية الانسانية واحترامها للانسانية من خلال الانسان . ومبعث هذه العناية في البدء انماهو الاهتمام بتدوين تراجم الصحابة وطبقات المحدثين، لما لهذا التدوين من صلة بالدين والتشريع . وهذا يحاكي ما كنا اشرنا اليه آنفاً من أن الدافع الديني كان أيضاً من أقوى البواعث على العناية برواية اللغة والادب ، لما له من شأن في توضيح معاني القرآن والحديث . وكما أن الحركة اللغوية والادبية المنبعثة عن اهتمام ديني في بادىء الأمر قد اتسعت آفاقها فيما بعد ، وتشعبت فروعها ، وأصبحت مقصودة لذاتها ، كذلك الامر في فن التراجم ، إذ سرعان ما تعددت حلقاته واتسعت حتى شملت أجناساً من طبقات الرجال والنساء ممن ليس لتراجمهم صلة بشؤون الدين والتشريع .

ورجال الادب من شعراء وكتاب ولغويين ونحويين ومصنفين كانوا كسواهم موضع عناية المؤرخين ومدوني التراجم . ولتسهيل البحث في الكتب المصنفة في تراجمهم سنقسم هـذه الكتب بحسب مضمونها إلى الزمر الثلاث التالية :

أ ـــ الكتب المصنفة في تراجم الشعراء .

ب ـ الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة .

ج ـ الكتب المصنفة في تراجم الادباء عامة دون تمييز في الاختصاص

وجرياً على عادتنا في هذا الكتاب سنقتصر على ذكر أشهر الكتب في كل زمرة من هذه الزمر ، مع الحرص على مراعاة الترتيب الزمني في عرضها ، كي يتتبع القارىء بنفسه تطور التأليف في هذا الباب من جيل إلى آخر .

أ ـ الكتب المصنفة في تراجم الشعراء

ان الكتب التي جمعت فيها تراجم الشعراء كثيرة ومتنوعة : فمنها ما قُصر مثلاً على تراجم قدماء الشعراء الجاهليين والاسلاميين ، ومنها ما اتسع لأخبار الشعراء الذين سبقوا عصر المؤلف جميعهم ، ومنها ماتناول قطراً بعينه فترجم لشعرائه لايتعداهم ، ومنها ماشمل أقطار العالم العربي كله آنذاك ، ومنهاما اتجه اتجاهاً معجمياً فذكر كلّ الشعراء ولم يغفل ذكر أحد منهم ولو كان مقلا أو مغموراً ، ومنها ما بني على الانتقاء فلم يذكر سوى المشهورين الذين يكثر تداول شعرهم أو الاحتجاج به . وسنرى فيما سنذكره أمثلة لهذه الاتجاهات كلها في تدوين تراجم الشعراء.

طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين[1] . — هذا الكتاب الذي

---

(١) طبع الكتاب طبعة اخيرة جيدة، بعنوان «طبقات فحول الشعراء»، بتحقيق محمود محمد شاكر . نشرته دار المعارف بمصر ١٩٥٣ .

ألفه محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١ هـ [١] هو من أقدم الكتب التي وصلتنا في تراجم الشعراء. والكتاب كما يظهر من عنوانه هو من كتب الطبقات. وتأليف الطبقات في الأصل معناه تصنيف رجال علمٍ أو فنٍّ أو مذهبٍ بحسب أزمانهم. كل جيل في طبقة. ومنشأ هذا الاتجاه في تدوين التراجم إنما هو علم الحديث ورغبة أصحابه في تصنيف رواته على طبقات، حتى تعرف أزمانهم وأجيالهم. وبذلك يتهيأ للمحدّثين دراسة الاسانيد ونقدها وتبين ما قد يكون فيها من خلل. ثم انتقل تصنيف الطبقات من الحديث إلى العلوم الأخرى، فألفت الكتب العديدة في طبقات القرّاء والفقهاء والحكماء والأطباء والنحاة والشعراء.

ولكن هذا المصطلح، أي مصطلح **الطبقات**، لم يحتفظ بمدلوله الزمني هذا في جميع كتب التراجم، بل فقده في بعضها حتى أصبح أحياناً مرادفاً لقولنا: كتاب أو معجم في التراجم. يدلّ على ذلك مثلاً بعض كتب الطبقات التي رتبت فيها التراجم على حروف الهجاء ككتاب السيوطي الذي سيرد ذكره في تراجم أصحاب اللغة، وعنوانه **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**.

هذا المصطلح قد يطلق أحياناً ويراد به تصنيف المترجم لهم في

---

(١) سبقت ترجمة ابن سلام الجمحي في ص (٨٨)، حاشية (١).

طبقات ، لا بحسب أجيالهم وأزمانهم ، ولكن بحسب منازلهم وأقدارهم في الفن أو العلم الذي عُرفوا به . وهذا المعنى القيمي ، لا الزمني ، هو المقصود في كتاب ابن سلام الذي نحن بصدده . فقد قسم ابن سلام كتابه إلى قسمين ذكر في الأول منهما مشاهير شعراء الجاهلية ، وفي الثاني مشاهير شعراء صدر الاسلام . أما المخضرمون فلم يعتبرهم المؤلف — وهو على حق في ذلك — زمرة زمنية مستقلة ، بل ذكر بعضهم بين شعراء الجاهلية وبعضهم بين شعراء الإسلام . فذكر مثلاً عمرو بن أحمر الباهلي ، وأبا زبيد الطائي ، وسحيم بن وثيل الرياحي ، وحميد بن ثور ، والأغلب العجلي — وهم جميعاً من المخضرمين — في طبقات الإسلاميين ، كما ذكر كعب بن زهير ، والحطيئة ، والنابغة الجعدي ، وأبا ذؤيب الهذلي ، والشماخ بن ضرار ، ولبيد بن ربيعة وهم جميعاً من المخضرمين أيضاً — في طبقات الجاهليين [1] .

وقد اختار ابن سلام من الجاهليين ومن جانسهم بهم من المخضرمين أربعين شاعراً جعلهم في عشر طبقات ، كل أربعة منهم في طبقة ، بعد أن *نزّلهم منازلهم وألف من تشابه شعره منهم الى نظرائه* . وعلى هذا النسق نفسه جرى في تصنيف القسم الثاني من كتابه الخاص بالشعراء

---

(١) يؤخذ على الكتاب مع ذلك بعض الاضطراب الزمني ، اذ ان بعض الشعراء الجاهليين — مثل بشامة بن الغدير وقراد بن حنش — قد ذكروا في طبقات الاسلاميين .

الإسلاميين ومن يجانسهم من المخضرمين . وألحق المؤلف بطبقات الجاهليين طبقات أخرى لم يشأ أن يدمجها بالطبقات العشر الأوَل . وذلك لأن لشعراء هذه الطبقات صفاتٍ خاصة تجمع بينهم وتميزهم من سواهم من شعراء الجاهلية ، إما من حيث الفن الشعري الذي اشتهروا به ، أو من حيث البيئة التي نشؤوا فيها ، أو من حيث الدين الذي كانوا يدينون به . فهناك **طبقة أصحاب المراثي** ، وهي مؤلفة من أربعة شعراء : متمم بن نويرة ، والخنساء ، وأعشى باهلة ، وكعب بن سعد الغنوي . وهؤلاء الشعراء إنما عرفوا بفن واحد ، هو الرثاء . على عكس فحول الطبقات العشر الأوَل الذين نظموا في الفنون الشعرية المختلفة . وهناك أيضاً **طبقة شعراء القرى العربية** . وهؤلاء يتميزون بنشأتهم الحضرية . وتضم هذه الطبقة ثلاثين شاعراً صُنفوا زمراً بحسب القرى التي عاشوا فيها : فهناك شعراء المدينة ، وشعراء مكة ، وشعراء الطائف ، وشعراء البحرين . وهناك أخيراً شعراء يهود المدينة في زمرة على حدة .

ويبلغ عدد الشعراء الجاهليين والإسلاميين الذين ذكرهم ابن سلام في كتابه هذا مئة وأربعة عشر شاعراً جلهم من المشاهير الذين يكثر الاحتجاج بشعرهم في العربية . وتراجم ابن سلام تتضمن بوجه عام نسب الشاعر وبعض أخباره المشهورة وآراء العلماء فيه ونماذج مختلفة من شعره . ورواية ابن سلام لهذه الاخبار والأشعار مشفوعة غالباً

بأسنادها ، وتدل على كثير من التحري والدقة . وتختلف هذه التراجم طولاً وقصراً : فمنها ما يطول حتى يتجاوز الصفحات العشر ، وفي هذه الحال تكون الترجمة وافية ومنطوية على نخبة قيمة من شعر الشاعر وأخباره وأقوال النقاد فيه . ومنها ما يقصر حتى يكون في أسطر أو كلمات معدودة ، وفي هذه الحال تفقد الترجمة كثيراً من قيمتها .

ويمتاز هذا الكتاب بمقدمته الجليلة التي هي من أقدم ما كتب في النقد الأدبي . وقد ضمّنها ابن سلام صفوة آرائه في النقد وما يحتاج إليه صاحبه من ثقافة وخبرة ، وفي نشأة علم العربية ، وفي أولية الشعر وما اعترى روايته من وضع وفساد على أيدي بعض الرواة الذين لم تتوفر فيهم شروط الأمانة العلمية . وهذه المقدمة ، على اضطرابها وعبث النساخ بها ، تدلّ دلالة واضحة على ما كان يتحلّى به ابن سلاّم من ورع علمي ، وفكر ثاقب ، وحسٍ نقدي أصيل .

كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة(١) :

وهذا الكتاب الذي ألفه عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ هو أيضاً من أقدم الكتب العربية التي نعرفها في تراجم الشعراء وقد حدد المؤلف موضوع كتابه في الأسطر الأولى من مقدمته حيث

---

(١) طبع كتاب (الشعر والشعراء) طبعة أخيرة حسنة بتحقيق أحمد محمد شاكر ، نشرته دار احياء الكتب العربية بالقاهرة في جزأين سنة ١٩٥٠ .

يقول : « هذا كتاب ألفته في الشعراء . أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم ، وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم ، وأسماء آبائهم ، ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم . وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره . وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم ، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون ... وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو ، وفي كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله ﷺ . فأما من خفي اسمه وقلّ ذكره وكسد شعره وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص ، فما أقلّ من ذكرت من هذه الطبقة ! » .

ويتضح من هذا القول أن ابن قتيبة لم يشأ أن يجعل من كتابه معجماً يذكر فيه جميع الشعراء ، وإنما اختار له أشهر الشعراء ، ولا سيما أولئك الذين يكثر العلماء من الاستشهاد بأشعارهم في علوم الدين والعربية .

ويختلف هذا الكتاب عن الكتاب السابق من حيث المضمون والخطة . أما من حيث المضمون فإن ابن قتيبة لم يقتصر في كتابه على ذكر الشعراء الجاهليين والاسلاميين كما فعل ابن سلاّم ، بل تناول بالذكر أيضاً عدداً من المحدثين الذين عاشوا في القرن الثاني وأوائل القرن الثالث . وقد دفعه إلى ذلك مبدأ المساواة في النقد بين القدماء والمحدثين . وهو المبدأ الذي نادى به في مقدمته ودافع عنه دفاعاً مجيداً ،

مخالفاً بذلك مذهب بعض العلماء الذين كانوا يفرطون في التعصب للقديم ، وذلك حين يقول :

« ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كلّ شاعر ، مختاراً له ، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره . ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلاًّ حظه ، ووفرت عليه حقه . فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ،ويضعه في متخيره ،ويرذل الشعر الرصين . ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله . ولم يقصر الله العلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولاخص به قوماً دون قوم . بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده . وجعل كلّ قديم حديثاً في عصره . »

وأما من حيث الخطة ، فإن الشعر والشعراء كتاب في تراجم الشعراء وليس كتاب طبقات ككتاب ابن سلاّم . فابن قتيبة ينظر في كتابه إلى كل شاعر بمفرده ، فيذكر أخباره وأشعاره وأقوال العلماء فيه ، ولا ينظر إلى الشعراء نظرة تصنيفية طبقية هي — مهما يقل فيها — موضع للأخذ والردّ .

والمتصفح لكتاب ابن قتيبة يرى أن المؤلف قد حرص فيه على إيراد تراجم الشعراء مراعياً في تتابعها الترتيب الزمني ، لا على وجه الدقة والضبط ولكن في خطوطه العامة . نعم ، إن ابن قتيبة لم يُشر في

كتابه إلى رغبته في اتباع هذا النهج الزمني في ترتيب تراجمه ، ولكنه بصورة عفوية يبدأ بإيراد تراجم الجاهليين والمخضرمين ، ثم يثنّي بتراجم الإسلاميين ، وينهي كتابه بتراجم المحدثين أمثال أبي العتاهية والعباس ابن الاحنف ومسلم بن الوليد ودعبل ومن في طبقتهم . هذا مع العلم أن المؤلف لم يراع هذا الترتيب مراعاة دقيقة ؛ فقد يذكر بعض المخضرمين قبل الجاهليين ، وقد يذكر بعض الجاهليين بعد الاسلاميين . ولكن منهاج الكتاب يبقى بوجه عام ذا صبغة زمنية واضحة .

وما دمنا في معرض المقارنة بين كتابي ابن سلام وابن قتيبة فلا يفوتنا أن نشير إلى أن كتاب *الشعر والشعراء* هو أوسع الكتابين وأغزرهما بالتراجم . ذلك أن ابن قتيبة يتناول من العصور ما لا يتناوله ابن سلام . ولذا بلغ عدد التراجم في كتاب ابن قتيبة ستاً ومئتي ترجمة ، وهذا العدد يبلغ مِثلي عدد التراجم في *طبقات الشعراء* .

ولهذا الكتاب ، كما لكتاب ابن سلام . مقدّمة مسهبة لها مكانتها المرموقة بين آثار النقد الأدبي عند العرب ؛ تحدّث فيها ابن قتيبة حديثاً رصيناً في الشعر وضروبه ، وفي المبادىء التي يجب أن يلزم الناقد بها نفسه حتى يكون عادلاً في حكمه ، وفي إطار القصيدة العربية وتتابع المعاني فيها ، وفي الطبع والتكلف ، وفي عيوب الشعر ، وما إلى ذلك من الموضوعات التي لها شأنها في النقد الأدبي ، وقد كان لهذه المقدمة أثرها البين في كثير مما كتب بعدها في هذا الباب .

كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني [1]

سبق أن أشرنا الى أن هذا الكتاب الثمين ليس قاصراً على تراجم الشعراء [2] فهو في الحقيقة من أغنى الموسوعات الأدبية القديمة التي تعتز بها المكتبة العربية. ولكن هذا الكتاب، على غزارة مادته وتنوع موضوعاته، هو أوسع مصدر نملكه في تراجم شعراء العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري.

وغرض المؤلف الأول من كتابه إنما هو تثبيت أشهر أغاني عصره

---

(١) ابو الفرج الاصبهاني، هو علي بن الحسين بن محمد القرشي، من سلالة مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية. والاصبهاني امام من ائمة الادب في القرن الهجري الرابع، ولد سنة ٢٨٤ هـ في اصبهان – ومن هنا لقبه – وقد توفي في بغداد سنة ٣٥٦ هـ، على اختلاف في هذا التاريخ. اما كتاب (الاغاني) فقد طبع لاول مرة بالقاهرة في ٢٠ جزءاً، وذلك بمطبعة «بولاق» سنة ١٢٨٥ هـ – ١٨٦٨ م، ثم اكمله المستشرق «رودولف برونو» بطبعه الجزء الحادي والعشرين منه في سنة ١٢٠٦ هـ – ١٨٨٨ م بمدينة «ليدن» الهولاندية. وصنع المستشرق الطلياني «جويدي» وبعض معاونيه فهارس هجائية وافية لهذه الطبعة طبعت باللغة الفرنسية في مجلد ضخم سنة ١٣١٨ هـ – ١٩٠٠ م في مدينة «ليدن» ايضاً. ثم طبع (الاغاني) بعد ذلك طبعة ثانية في القاهرة بنفقة الحاج محمد الساسي وتم طبعه سنة ١٣٢٣ هـ وقد ظهرت هذه الطبعة الثانية في «٢١» جزءاً وأضيف اليها الفهارس التي وضعها المستشرق «جويدي». وقد بدأت دار الكتب المصرية عام ١٩٢٧ م بطبع الكتاب للمرة الثالثة طبعة أنيقة مصححة، ولكن هذه الطبعة لم تتمه بعد.

(٢) انظر ص ١٥٥ من هذا الكتاب.

بكلماتها وألحانها . فقد كان الخليفة الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) أمر بعض مغني عصره أن يصطفوا له من بين الأغاني المشهورة مئة أغنية أو صوت . ولما تولى الخلافة حفيده الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) طلب إلى إسحق بن إبراهيم الموصلي ، أشهر مغني ذلك العصر ، أن يعيد النظر في هذه الأصوات المئة . وكانت نقطة الانطلاق في كتاب أبي الفرج تثبيت هذه الأصوات بتقييد كلماتها وألحانها ، وذكر أسماء ملحنيها وشعرائها. ومن هنا العنوان الذي اختاره لكتابه . ولكن قيمة الكتاب الموسيقية لا تكاد في الحقيقة تذكر إلى جانب ما انطوى عليه من ثروة أدبية كبيرة. ذلك أن أبا الفرج كان إذا ذكر صوتاً من الأصوات أسهب في ترجمة الشاعر الذي اختير هذا الصوت من شعره كما أسهب في ترجمة المغني الذي وضع لحنه . وقد يتفق أن يكون الشعر منسوباً لأكثر من شاعرٍ واحد ، أو أن يكون قد وضع له أكثر من لحن واحد ، فلا يتردد أبو الفرج في ذكر تراجم كل الشعراء الذين ينسب إليهم هذا الشعر وكل المغنين الذين تعزى إليهم تلك الألحان . كما أن الكلام على صوت من الأصوات وعلى ملحنه كثيراً ما يستدعي ذكر أصوات أخرى عرف بها هذا اللحن ، فلا يتردد المؤلف في ذكر أخبار الشعراء الذين تنسب إليهم تلك الأصوات . وهكذا غدا الكتاب سجلاً ضخماً لتراجم أعلام الشعر والغناء في عصر أبي الفرج والعصور التي سبقته، كما غدا سجلاً للحضارة العربية والإسلامية في كثير من مظاهرها .

وليس يعنينا كتاب الأغاني في بحثنا هذا إلا من حيث كونه مصدراً من مصادرنا الهامة في تراجم الشعراء [١]. ففي هذا الكتاب مايقرب من خمسمئة ترجمة لخمسمئة شاعر وشاعرة عاشوا في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر العباسي الأول. وجل هذه التراجم شديدة التفصيل غزيرة المادة تحتوي على قسط وافر من أخبار الشعراء والمترجم لهم ومن آثارهم . بل إن بين هذه التراجم مالو أفرد عن الكتاب لجاء كتاباً مستقلاً بنفسه .

وكان أبو الفرج الاصبهاني يجمع بين سعة الرواية والحذق في الدراية كما كان معروفاً بحسن استيعاب مايتصدى لجمعه.[٢] فكان يروي مايروي في كتابه مرفقاً بالأسانيد المطولة ، كما كان يشير إلى مصادره المكتوبة في كثير من الأحيان . وكان أكثر تعويله في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد ، كما يذكر ابن النديم في الفهرست[٣] ، وكل من تصفح هذا الكتاب الجديد لابدّ مقدّر مابذل في تصنيفه من جهود ، ومقتنع بأن مؤلفه لم يكن يغالي كثيراً حين زعم أنه

---

(١) هنالك دراسات تناولت كتاب الاغاني بالتفصيل ، منها كتاب « دراسة الاغاني » للاستاذ شفيق جبري عميد كلية الآداب بدمشق ، طبع في دمشق عام ١٩٥١ . وكتاب (ابو الفرج الاصفهاني وكتابه الاغاني) ، لمحمد عبد الجواد الاصمعي ، نشرته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥١ ايضاً . وكتاب (صاحب الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني الراوية) للدكتور محمد أحمد خلف الله ، طبع في مصر سنة ١٣٥٣ .

(٢) معجم الادباء : ج ١٣ ، ص ٩٥ .

(٣) الفهرست : ص ١٦٧ .

أنفق خمسين عاماً من حياته في جمع مادة كتابه . ولا شك أن أبا الفرج قد صدر في كتابه هذا عن كلّ ما ألف قبله في الشعر والشعراء. وكثير من المصنفات التي صدر عنها أبو الفرج واستقطرها في أغانيه قد فقدت اليوم . ولا ريب في أن وصول **الأغانى** بتمامه إلينا يخفف من أسفنا الشديد على فقد هذه المصنفات . ذلك أن أبا الفرج عرف كيف يصهر في كتابه الرحب أثمن معارف عصره الأدبية، بعد أن استقاها من عشرات الكتب . وهذا معنى ما روي من أن الكاتب والوزير البويهي المشهور الصاحب بن عباد ، الذي كان مولعاً باقتناء الكتب حتى اجتمع منها في خزانته مالم يجتمع عند غيره، كان اذا سافر استصحب معه من الكتب مايحمل على ثلاثين جملا ، فلما وصل اليه كتاب الاغاني استغنى به عنها .

وروى ياقوت في أخبار أبي الفرج [1] أن الصاحب بن عبَّاد هذا لما علم أن سيف الدولة بن حمدان كافأ أبا الفرج على كتابه الأغاني بألف دينار قال : « لقد قصّر سيف الدولة ! وانه يستأهل أضعافها . ولقد اشتملت خزائني على مئتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميري غيره ، ولا راقني منها سواه . »

وبين الفهارس الكثيرة التي صنعها المستشرق (جويدي) للكتاب

---

(١) معجم الادباء ج ١٣ ، ص ٦٧

فهرس بأسماء الشعراء الذين ورد ذكرهم فيه . وهـذا الفهرس يهدي المراجع بسهولة الى التراجم التي يبحث عنها .

معجم الشعراء للمرزباني[١] والمؤتلف والمختلف للآمدي[٢] :

وهذان كتابان آخران من الكتب المصنفة في تراجم الشعراء خلال القرن الهجري الرابع . وقد ذكرناهما معاً ، وإن اختلف مؤلفاهما ، لأنهما في طبعتها الوحيدة التي بين أيدينا منهما ، قد نشرا معاً في مجلد واحد[٣] .

أما **معجم الشعراء** فهو ، كما يفهم من عنوانه ، معجم رتبت فيه أعلام الشعراء على الحروف الهجائية ، مع مراعاة أوائل الاسماء وصرف النظر عن الألقاب والكنى . وقد حاول المرزباني في هـذا المعجم الأول من نوعه بين كتب تراجم الشعراء أن يستقصي ذكر الشعراء قاطبةً ، مشهورهم ومغمورهم ، مكثرهم ومقلهم ، حتى ضمنه

---

(١) هو ابو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ، أحـد المؤرخين الادباء في القرن الرابع ، توفي في بغداد سنة ٣٨٤ ﻫ . وهو صاحب كتاب « الموشح » المشهور .

(٢) هو ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدي الاديب الناقد المعروف صاحب كتاب « الموازنة بين ابي تمام والبحتري » توفي سنة ٣٧٠ ﻫ .

(٣) طبع الكتابان في جزء واحد نشرته مكتبة القدسي بالقاهرة عام ١٣٥٤ ﻫ باشراف المستشرق (كرنكو) .

ما لا يقل عن خمسة آلاف اسم كما يذكر ابن النديم[1] . ولكن الذي يؤسف له أن هذا المعجم القيم لم يصلنا بتمامه ، إذ لم يعثر الباحثون إلا على قسمه الأخير الذي يتضمن أسماء الشعراء من حرف العين ـ مادة: عمرو ـ حتى آخر الحروف الهجائية، ولو أن هذا الكتاب وصلنا بتمامه لكان أوفى سجل نرجع إليه للبحث عن أسماء شعراء العربية من أقدم العصور حتى نهاية القرن الهجري الثالث .

وأما **المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم** فهو أيضاً معجم لأعلام الشعراء مرتب على الحروف الهجائية ، إلا أن الآمدي جمع فيه أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم في زمر يسهل معها بيان ما كان منها مؤتلفاً ، أو مختلفاً ، أو متقارباً في اللفظ . أو متشابهاً في الرسم . فالاسم الواحد كثيراً ما يؤلف بين عدد من الشعراء . فما أكثر من يسمى من الشعراء بامرىء القيس أو بالشماخ ! وما أكثر من يلقب منهم بالاعشى أو النابغة ! وقد جهد الآمدي أن يعرّف كلاً من هؤلاء الشعراء الذين ائتلفت اسماؤهم حتى لايختلط أمرهم على الباحث . كما أن هنالك كثيراً من الأسماء أو الألقاب تتقارب في اللفظ أو في الخط فلايفرق بينها إلاّ الشكل أو النقط . فبين الشعراء يزيد وبريد، والأشعر والأسعر، وسهم وشهم ، وجرير وحريز ، والبعيث والنعيت، وخباب وجناب،

---

(١) انظر الفهرست : ص ١٩٢ .

والأغرّ والأعز.... ولاشك أن مثل هذه الأسماء والألقاب المتقاربة في حاجة إلى تمييز وإيضاح حتى لا تلتبس على الباحث أو القارىء ، إذ أنها أكثر تعرضاً من سواها لخطر التصحيف . وقد جمع الآمدي في كتابه هذا كل اسم أو لقب مشهور مع ما يشابهه لفظاً أو رسماً من الأسماء والألقاب ، ثم ميز بين أصحاب هذه الأسماء ذاكراً نسب كل منهم وطرفاً من أخباره وشعره .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن التراجم في هذين الكتابين مقتضبة جداً لا تنقع الغلة . ذلك أننا هنا أمام معاجم غايتها الأولى تقصي أسماء الشعراء وضبط ألقابهم وكناهم على اختلاف طبقاتهم وأقدارهم ، ولسنا أمام كتب خصصت بالشعراء المشهورين وحدهم .

يتيمة الدهر للثعالبي : (١)

هذا الكتاب يختلف عن الكتب السابقة بكونه مقصوراً على شعراء عصر معين ، هو عصر المؤلف ، أي : القرن الهجري الرابع . وتأليف

---

(١) سبقت ترجمة الثعالبي في ص ٥٨ ، حاشية «١» ، أما اليتيمة فقد طبعت للمرة الاولى في دمشق سنة ١٣٠٣ ﻫ . ثم طبعت بعد ذلك في مصر مرتين الاولى سنة ١٣٥٢ ﻫ — ١٩٣٥ م بتحقيق محمد اسماعيل الصاوي ، والثانية سنة ١٣٦٦ ﻫ ١٩٤٧م بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

هذا الكتاب الضخم في ذلك العصر ، إن دل على شيء ، فعلى اهتمام الأوساط الأدبية آنذاك بالشعر المحدث والشعر المعاصر ، بعد أن كانت أنظار المصنفين من قبل تتجه أكثر ماتتجه إلى العناية بالقدماء قبل سواهم [1] .

وقد قص علينا الثعالبي في مقدمة كتابه الأسباب التي حملته على تأليف كتابه هذا ، وبين المراحل التي مر بها كتابه فقال ماخلاصته : «وقد سبق مؤلفو الكتب إلى ترتيب المتقدمين من الشعراء والمتأخرين ، وذكر طبقاتهم ودرجاتهم ، وتدوين كلماتهم ، والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم .. وبقيت محاسن أهل العصر التي معها رواء الحداثة، ولذة الجدة ، وحلاوة قرب العهد ، وازدياد الجودة على كثرة النقد ، غير محصورة بكتاب يضم نشرها ... وقد كنت تصديت لعمل ذلك في سنة أربع وثمانين وثلثمئة ، والعمر في إقباله ، والشباب في نمائه ... فارتفع كعجالة الراكب وقبسة العجلان . وقضيت به حاجة في نفسي

---

(١) لا يفوتنا هنا أن نذكر ان الثعالبي لم يكن أسبق المصنفين الى الاهتمام بالشعراء المحدثين والمعاصرين . ولعل ابن المعتز كان اسبق الادباء الى العناية بهم حين الف كتابه « طبقات الشعراء المحدثين » في اواخر القرن الهجري الثالث . وقد طبع هذا الكتاب في لندن سنة ١٩٣٩ م بالتصوير بعناية العالم الايراني الاستاذ عباس اقبال ، ثم طبع في دار المعارف في القاهرة ضمن سلسلة (ذخائر العرب) بتحقيق عبد الستار فراج .

وأنا لا أحسب المستعيرين يتعاورونه ، والمنتسخين يتداولونه ، حتى يصير من أنفس ماتشح عليه أنفس الأدباء والإخوان ، وتسير إلى أقاصي البلدان ... فقلت : إن كان لهذا الكتاب محل من نفوس الأدباء ، وموقع من قلوب الفضلاء ، فيما لم يقرع من قبل آذانهم ، فلم لاأبلغ به المبلغ الذي يستحق حسن الإحماد ... ؟ ولم لا أبسط فيه عنان الكلام ... ؟ إلى أن أدركت عصر السن والحنكة ، وشارفت أوان الثبات والمسكة . فاختلست لمعةً من ظُلم الدهر ، وانتهزت رقدةً من عين الزمان ... واستمررت في تقرير هذه النسخة الأخيرة وتحريرها من بين النسخ الكثيرة ، بعدأن غيرت ترتيبها وجددت تبويبها . فهذه النسخة الآن تجمع من بدائع أعيان الفضل ، ونجوم الارض أهل العصر ومن تقدمهم قليلا وسبقهم يسيراً ، مالم تأخذ الكتب العتيقة غرره .»

واضح من هذا الكلام أن الثعالبي ألف كتابه ، في نسخته الأولى ، سنة ٣٨٣ ﻫ . وكان إذ ذاك في الرابعة والثلاثين من عمره . ولما رأى إقبال المتأدبين على كتابه ــ وهو مالم يكن يتوقع ــ حمله ذلك على إعادة النظر في كتابه بعد أن تقدمت به السن ، فحرر إذ ذاك النسخة الأخيرة من الكتاب ، بعد أن زاد في النسخة الأولى ، ونقص منها وغير ترتيبها وتبويبها . وأغلب الظن أن هذه النسخة الأخيرة لم تظهر إلا في مطلع القرن الهجري الخامس .

وقد قسم الثعالبي كتابه إلى أربعة أقسام بحسب أقاليم الممالك الإسلامية في عصره . فخص القسم الأول بشعراء الشام ومصر والمغرب والأندلس ، والقسم الثاني بشعراء العراق ، والقسم الثالث بشعراء فارس ، والقسم الرابع والأخير بشعراء خراسان وما وراء النهر . وقد بدأ حديثه في الكتاب بالكلام على شعراء الشام لأنه كان يرى أن شعراء هذا القطر قد فضلوا سواهم من شعراء الاقطار الاخرى في القديم والحديث لأسباب يعددها .(١)

وتختلف تراجم اليتيمة عن تراجم الكتب الأخرى بطغيان الأشعار المختارة فيها على أخبار الشاعر وتفاصيل حياته ، حتي ليمكن اعتبار هذا الكتاب مجموعة مختارة من آثار شعراء القرن الرابع لا كتاباً في تراجم . وتختلف تراجم اليتيمة فيما بينها طولاً وقصراً . فهناك

---

(١) يقول الثعالبي : «والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما اهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة اهل العراق ، لمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم اياهم . ولما جمع شعراء العصر من اهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ، ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبني ورقاءهم بقية العرب والمشغوفون بالادب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين ادوات السيف والقلم ، وما منهم الا اديب جواد يحب الشعر وينتقده ، ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل ، انبعثت قرائحهم في الاجادة ، فقادوا محاسن الكلام بألين زمام ، وأبدعوا ماشاءوا » .

تراجم غنية ومطولة لعدد من كبار شعراء القرن الرابع وادبائه المرموقين كأبي فراس الحمداني وأبي الفرج الببغاء ، والسري الرفاء ، وأبي إسحق الصابي، وابن الحجاج ، وابن العميد، والصاحب بن عباد ، والخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني ،وأبي الفتح البستي،وأبي الفضل الميكالي ، وغيرهم . بل إن بعض تراجم الكتاب تكاد تبلغ أحياناً مئة صفحة ، كما هي الحال مثلاً في ترجمتي المتنبي والصاحب بن عباد . وإلى جانب هذه التراجم المطولة الخصبة تراجم قصيرة لا تتجاوز الصفحة الواحدة أو الصفحات القليلة . وفي رأينا أن قيمة الكتاب الحقيقية ليست في تلك التراجم المطولة لمشاهير الشعراء والأدباء ، إذ أن أخبار هؤلاء وآثارهم معروفة ومشهورة يمكن الاطلاع عليها في دواوينهم وفي معظم كتب الأدب . ولكن قيمة الكتاب إنما هي في مئات التراجم القصيرة التي ينطوي عليها لأولئك الشعراء الأوساط أو المغمورين الذين عاشوا في القرن الهجري الرابع في مختلف بقاع العالم الاسلامي الفسيح . فلولا يتيمة الدهر لفقدت معظم أخبار هؤلاء وآثارهم ولما عرفنا عن كثير منهم شيئاً يذكر .

ومجمل القول إن المتصفح لكتاب يتيمة الدهر يخرج من قراءته إياه بصورة حية كاملة للحياة الأدبية عامة ، والشعرية خاصة ، خلال المئة الرابعة . ومثل هذه الصورة تنقصنا مع الأسف للعصور السابقة ، ذلك أن المصنفين قبل الثعالبي كانوا في الغالب يعنون بالقدماء أكثر

من معاصريهم . ولا بد لتثبيت صورة الحياة الأدبية في عصر من العصور من أن ينهض بصنعها أحد أبنائه ، قبل أن يتأكل النسيان جوانب ذلك العصر ويغطي بصدئه على كثير من ملامح الحياة فيه .

وقد لاقت طريقة الثعالبي هذه ، التي تقوم على العناية بالشعر المعاصر ، قبولاً لدى عدد من الادباء والمصنفين الذين جاءوا بعده ، فحاولوا أن يطبعوا على غراره . فكان لنا من جراء ذلك عدد من المصنفات تؤلف وكتابَ الثعالبي سلسلة متتابعة الحلقات . مثل كتاب **دمية القصر** للباخرزي[١] ، وكتاب **زينة الدهر** للحظيري[٢] ، وكتاب **خريدة القصر** للعماد الكاتب[٣] . وهذه العناوين المصبوبة في قالب واحد ، تكفي

(١) هو ابو الحسن علي بن الحسن الباخرزي ، نسبة الى باخرز – بفتح الخاء وسكون الراء – ناحية من نواحي نيسابور . والباخرزي احد الشعراء الادباء في القرن الهجري الخامس ، توفي سنة ٤٦٧ هـ . وكتابه « دمية القصر وعصرة اهل العصر » يحتوي على تراجم عدد كبير من شعراء اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس . وقد نشرت « الدمية » في حلب سنه ١٣٤٨ هـ « ١٩٣٠ م » بتحقيق محمد راغب الطباخ . والكتاب مقسم الى اقسام بحسب اقاليم الممالك الاسلامية على طريقة تشبه طريقة الثعالبي الى حد كبير .

(٢) هو ابو المعالي سعد بن علي بن القاسم الحظيري البغدادي المعروف بالوراق دلال الكتب . كان اديباً وشاعراً رقيق الشعر ، توفي سنة ٥٦٨ هـ . ألف كتاباً سماه « زينة الدهر في لطائف شعراء العصر » ذيل بـه دمية القصر للباخرزي والكتاب مفقود .

(٣) هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب الاصبهاني ، كاتب صلاح الدين =

دليلاً على إعجاب مؤلفي هذه الكتب بالثعالبي وحرصهم على ترسم خطاه في كتابه .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام[١] :

لم تقتصر شهرة اليتيمة على المشرق بل سرعان ماتجاوزته إلى المغرب. وليس كتاب الذخيرة لابن بسام سوى محاولة أندلسية للنسج على منوال الثعالبي . وقد سبق لنا أن أشرنا إلى حرص الاندلسيين على مجاراة المشارقة في كل مضمار .[٢] وكما أن ابن عبد ربه ترسم في **العقد الفريد**

=الايوبي ، مؤرخ واديب وشاعر معروف . ولد في اصبهان سنة ٥١٩ ﻫ وتوفي في دمشق سنة ٥٩٧ ﻫ . كان كتابه المشهور « خريدة القصر وجريدة العصر » مخطوطاً الى امد قريب . وفي عام ١٩٥٢ طبع القسم المتعلق منه بشعراء مصر في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة في جزأين ، واشرف على نشر هذا القسم الاساتذة احمد امين وشوقي ضيف واحسان عباس . ويقوم الآن المجمع العلمي العربي بدمشق بنشر القسم المتعلق منه بشعراء الشام باشراف الدكتور شكري فيصل ، كما يقوم المجمع العلمي العراقي بنشر القسم المتعلق بشعراء العراق ، بتحقيق الاستاذ محمد بهجت الاثري والدكتور جميل سعيد .

(١) هو ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، احد ادباء الاندلس في القرن السادس توفي سنة ٥٤٢ ﻫ . اما كتاب « الذخيرة » فقد شرعت لجنة جامعية من كلية الآداب بالقاهرة بالاشراف على تحقيقه وطبعه في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٩م. ولكن الكتاب لم يصدر منه مع الاسف حتى اليوم سوى ثلاثة اجزاء من اصل ثمانية .

(٢) انظر ص ١٤٥ من هذا الكتاب .

آثار ابن قتيبة في **عيون الأخبار** ، كذلك نهج ابن سلام نهج الثعالبي لينبه من شأن معاصريه الاندلسيين . وكما جعل الثعالبي كتابه في أربعة أقسام بحسب أقاليم المملكة الاسلامية ، كذلك جعل ابن بسام كتابه في أربعة أقسام ، فخص ثلاثة منها بأدباء الاقاليم الاندلسية الثلاثة : المتوسط والغربي والشرقي ، ووقف القسم الرابع على الادباء الوافدين على الاندلس وعلى أدباء افريقية والمشرق .

يبدأ ابن بسام مقدمة كتابه بالاشارة إلى ولوع الاندلسيين بأدب المشارقة « حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً . »هذا، بينما يهمل هؤلاء الاندلسيون أدبهم وأدباءهم .ويغيظ ابن بسام موقف مواطنيه هذا فلا يرى بدأ من أن يأخذ نفسه بتتبع محاسن أهل بلده وعصره « غيرة لهذا الافق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة ، مع كثرة أدبائه ووفور علمائه ... وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالاحسان ؟ » وهكذا يؤلف ابن بسام كتابه الذخيرة ويجعله قاصراً على أدباء عصره ، فلا يذكر منهم إلا من أدركه بنفسه أو أدركه بعض معاصريه .[(١)]

(١) يقول ابن بسام في مقدمة الذخيرة : « وقد كتبت لارباب هذا الشأن من اهل الوقت والزمان محاسن تبهر الالباب وتسحر الشعراء والكتاب . ولم اعرض بشيء من اشعار الدولة المروانية والمدائح العامرية ، ولا تعديت اهل عصري ممن شاهدته بعمري او لحقه اهل دهري ».

ويشير ابن بسام في مقدمة كتابه إلى الخطة التي اتبعها في تصنيفه ، وإلى أسماء الشعراء والكتاب الذين سيجعلهم موضع حديثه في كل قسم من أقسامه ، وينهي كلامه في ذلك قائلاً : « وإنما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبي منصور في تأليفه المشهور المترجم بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . » وهكذا يصرح ابن بسام بتأثره خطا الثعالبي .

والذخيرة أوفى مرجع نملكه في تراجم شعراء الاندلس وأدبائه من أواخر القرن الهجري الرابع حتى اوائل القرن السادس[1] . وتراجم الكتاب مسهبة وجد غنية بالاخبار والمختارات . ومن المؤسف حقاً أن يبقى هذا السفر القيم حتى اليوم بعيداً عن متناول الباحثين في معظم أقسامه .

---

(١) هنالك مراجع كثيرة اخرى يستطيع الباحث ان يعتمدها في مراجعة تراجم شعراء الاندلس وادبائه ، من اشهرها كتابا « قلائد العقيان » و « مطمح الانفس » لمؤلفها الفتح بن محمد بن عبيدالله بن خاقان الاندلسي المتوفى سنة ٥٢٩ﻫ. والكتابان في تراجم اعيان الاندلس عامة في القرن الخامس ، من امراء ووزراء وقضاة وعلماء وادباء وشعراء . ويمكن اعتبار ثانيها متمماً للأول . وهناك ايضاً كتاب « نفح الطيب » لاحمد بن محمد المقري المتوفى سنة ١٠٤١ﻫ وهو موسوعة ادبية ضخمة ، استعرض فيها مؤلفها تاريخ بلاد الاندلس وادبها من الفتح حتى خروج العرب منها ، والقارئ يجد كثيراً من تراجم شعراء الاندلس مبثوثة هنا وهناك في هذا الكتاب الجميل . وهذه الكتب الثلاثة مطبوعة .

ب — الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة

لقي اللغويون والنحاة من عناية مصنفي التراجم ما لقيه الشعراء ؛ فألفت الكتب العديدة في أخبارهم وتعداد آثارهم وبيان مذاهبهم . واتجه المؤلفون أيضاً في تصنيف تراجم هذه الفئة من العلماء وجهات مختلفة . فمنهم من نهج في تأليفه نهجاً زمنياً ،ومنهم من أخذ بعين الاعتبار المواطن التي نشأ فيها هؤلاء العلماء ، ومنهم من ذهب في التأليف مذهباً معجمياً فرتب التراجم على حروف المعجم .

ولسنا نعرف على وجه اليقين أول من تصدّى للتأليف في هذا الباب . غير أن من أقدم مايذكره المؤرخون في هذا الموضوع كتاباً لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد المتوفى سنة ٢٨٦ ﻫ عنوانه **طبقات النحويين البصريين وأخبارهم** . وفي القرن التالي تتوالى الكتب في هذا الموضوع، فيؤلف ابن درستويه **أخبار النحويين**[١] ،والسيرافي **طبقات النحاة البصريين**[٢] ،

---

(١) ابن درستويه : ابو محمد ، عبدالله بن جعفر بن محمد بن درستويه ، من علماء اللغة ، له مصنفات كثيرة منها « معاني الشعر » و « اخبار النحويين » و « نقض كتاب العين » توفي سنة ٣٤٧ ﻫ .

(٢) السيرافي : ابو سعيد ، الحسن بن عبدالله ، اصله من سيراف ، وتفقه في عمان ، وسكن بغداد ، فتولى نيابة القضاء ، وتوفي فيها سنة ٣٦٨ ﻫ .

كان معتزليا ، متعففاً لا يأكل الا من كسب يده ، ويعتبر من اكبر=

وأبو الطيب اللغوي **مراتب النحويين**[1] والمرزباني **المقتبس في أخبار النحويين واللغويين**[2] . ويتتابع المؤلفون في القرون التالية على تدوين تراجم النحاة واللغويين فيحاول كل منهم أن يمضي في الموضوع إلى أبعد من الغاية التي وصل اليها من قبله ، حتى يأتي الجلال السيوطي في أواخر القرن الهجري التاسع فيضع معجمه الجامع : **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** .

وقد فقد كثير من الكتب المؤلفة في هذا الموضوع . كما أن بعضها مازال حتى اليوم مخطوطاً . وسنكتفي هنا بذكر أربعة ننتقيها من بين أشهر الكتب المطبوعة في هذا الباب وهي : **طبقات النحويين واللغويين** لأبي بكر الزبيدي ، **ونزهة الالباء** للانباري ، **وانباه الرواة** للقفطي ، **وبغية الوعاة** للسيوطي .

النحويين البصريين ، له « شرح كتاب سيبويه » و « اخبار النحويين البصريين » وقد طبع بتحقيق المستشرق كرنكو عام ١٩٣٥ ، ثم طبع ثانية في مصر بتحقيق السيدين طه محمد الزيني ومحمد عبدالمنعم خفاجي عام ١٩٥٥ .

(١) ابو الطيب اللغوي : عبدالواحد بن علي الحلبي ، لغوي اصله من عسكر مكرم ، وقدم حلب فأقام بها الى ان قتل يوم دخلها الدمستق سنة ٣٥١ هـ ، له من الكتب « لطيف الإتباع » و « الإبدال » و « شجر الدر » و « مراتب النحويين » وقد طبع في مصر بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم سنة ١٣٧٥ هـ « ١٩٥٥ م » .

(٢) سبقت ترجمة المرزباني في ص ١٧٢ ، حاشية « ١ » .

طبقات النحويين واللغويين للزبيدي [١]

هذا الكتاب من أقدم ما وصلنا في موضوعه . وقد ظهر في الاندلس في أواسط القرن الهجري الرابع ، واستعرض فيه مؤلفه تراجم رجال اللغة والنحو من نشأة هذين العلمين حتى عصره ، أي خلال ثلاثة قرون تقريباً . وقد بنى المؤلف خطة كتابه على الاسس التالية :

آ ـــ تصنيف تراجم اللغويين والنحاة بحسب مواطنهم . فالكتاب من هذه الناحية مقسوم إلى خمسة أقسام بحسب الاقاليم الخمسة التالية : البصرة ، والكوفة ، ومصر ، وافريقية ، والاندلس . وتقسيم الكتاب على هذا النحو أمر ذو شأن نظراً الى اختلاف المذاهب باختلاف الامصار .

ب ـــ تصنيف علماء كل مصر من هذه الامصار في طبقات يختلف عددها من مصر إلى آخر . ومفهوم الطبقات في هذا الكتاب زمني ،

---

(١) هو ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الاندلسي الاشبيلي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ من علماء عصره في النحو واللغة . درس على ابيه وعلى جماعة من مشايخ عصره منهم ابو علي القالي . وقد سبق ان اشرنا ص ٢١ حاشية ١ الى ان الزبيدي وضع مختصراً لكتاب العين . اما كتابه « طبقات اللغويين والنحويين » فقد سبق للمستشرق كرنكو ان نشر مختصره سنة ١٩١٩ م . وقد طبع هذا الكتاب للمرة الاولى كاملاً سنة ١٩٥٤ بمطبعة السعادة بمصر ، بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم .

أي أن رجال كل طبقة يمثلون جيلا من أجيال المشتغلين باللغة والنحو.

حـ — الفصل بين علماء اللغة وبين علماء النحو. ولم ينح الزبيدي هذا النحو إلا في تراجم البصريين والكوفيين. أما في تراجم علماء الامصار الاخرى فقد مزج بين الفريقين. ولعلّ المزج والتوحيد في هذا الباب أصوب لما بين هذين العلمين من اتصال وتعاون، ولأنه قلّ أن تجد عالماً استقلّ بأحد العلمين تماماً فلم تكن له مشاركة في العلم الثاني البتة.

والتراجم في هذا الكتاب مختلفة القيمة، فهي أحياناً ملأى بالاخبار ذات الدّلالة القيمة، وأحياناً أخرى في غاية الفقر. ولكن يجب ألاّ ننسى أن مجرّد ذكر أحد اللغويين في طبقة معينة كاف للدلالة على موطنه ومذهبه وعصره على وجه التقريب.

وإذا كان لا بدّ من الاشادة بفضل الزبيدي في تصنيف هذا الكتاب فمن العدل أيضاً أن نشيد بفضل الخليفة الاموي الحكم المستنصر بالله الذي كان الباعث للزبيدي على تأليف هذا الكتاب والراسم لخطته، كما كان هو وأبوه الناصر الباعثين لأبي علي القالي أستاذ الزبيدي على تأليف اماليه [١].

---

(١) يقول الزبيدي في مقدمة كتابه «ص٩—١٠»: «وان امير المؤمنين الحكم المستنصر — رضي الله عنه — لما اختصه الله بـه ومنحه الفضيلة فيه من—

نزهة الألباء في طبقات الادباء ، للانباري :[(١)]

هذا الكتاب ظهر في أواسط القرن الهجري السادس[(٢)] . وهو كتاب لطيف الحجم يحتوي على تراجم مايقرب من مئتي عالم من علماء اللغة والنحو ، من نشأة علم النحو حتى عصر المؤلف . والكتاب يبدأ بمقدمة في نشأة علم النحو في القرن الاول ، ثم تتوالى فيه تراجم اللغويين والنحاة مرتبة ترتيباً زمنياً عاماً بحسب سني وفاة أصحابها . ولم يصنف الانباري هؤلاء العلماء بحسب مواطنهم أو بحسب أجيالهم

= العناية بضروب العلوم والاحاطة بصنوف الفنون ، امرني بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الاسلام . ثم من تلاهم من بعد ... الى زماننا هذا ، وان اطبقهم على ازمانهم وبلادهم بحسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم ، واذكر مع ذلك موالدهم واسنانهم ومدداعمارهم وتاريخ وفاتهم على قدر الامكان في ذلك وبحسب الادراك له ... فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي امرني به امير المؤمنين ».

(١) هو ابو البركات عبدالرحمن بن محمد عبدالله الانباري الملقب بالكمال النحوي توفي سنة ٥٧٧ هـ . قرأ النحو على ابن الشجري واللغة على ابي منصور الجواليقي . من مصنفاته المشهورة « الانصاف في مسائل الخلاف بين نحاة الكوفةوالبصرة ». اما كتابه « نزهةالالباء » فقد طبع فيمصر سنة ١٢٩٤هـ.

(٢) يدل على ذلك ان آخر ترجمة في الكتاب هي لاستاذ المؤلف ابي السعادات ابن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ هـ . وقد اشار الانباري الى تاريخ وفاة ابن الشجري مما يدل على انه ألف كتابه بعد ذلك التاريخ .

كما فعل الزبيدي قبله ، وإنما اكتفى بالترتيب الزمني كما فعل ابن قتيبة في الشعر والشعراء . ويغلب على الظن أن الانباري لم يطلع على كتاب الزبيدي ، فهو لايترجم له ولا يشير الى كتابه بين مصادره . ولو أنه اطلع عليه لافاد من منهجه .

ومع هذا فان كتاب الانباري خير متمم لكتاب الزبيدي . إذ أنه يتناول تراجم رجال اللغة والنحو حتى منتصف القرن السادس ، بينما يقف كتاب الزبيدي كما رأينا عند منتصف القرن الرابع .

انباه الرواة على أنباه النحاة القفطي : (١)

ظهر هذا الكتاب في القرن الهجري السابع. وقد نهج مؤلفه في تصنيفه نهجاً معجمياً ، فرتب تراجمه على حروف أسماء أصحابها كما فعل المرزباني في معجم الشعراء . وقد جهد المؤلف أن يستقصي في كتابه

---

(١) هو القاضي الاكرم الوزير جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي نسبة الى قفط : بلدة مصرية - . ولد سنة ٥٦٨ هـ وعاش صدر حياته في القاهرة وبيت المقدس . ثم قضى بقية حياته كاتباً ووزيراً للأيوبيين في حلب ، حيث توفي سنة ٦٤٦ هـ . له مؤلفات كثيرة في التاريخ والادب . اما كتابه « انباه الرواة على انباه النحاة » فقد شرعت دار الكتب المصرية بطبعه عام ١٩٥٠م بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . وقد ظهر منه حتى اليوم ثلاثة اجزاء والرابع على وشك الظهور .

هذا أخبار اللغويين والنحويين الذين عاشوا في مختلف اقاليم العالم الاسلامي من عصر أبي الاسود الدؤلي حتى القرن الهجري السابع . واستعان على تحقيق غايته بكنوز مكتبته ، اذ ان القفطي كان شديد الشغف باقتناء الكتب يرتخص في سبيل الحصول عليها كلّ غال ونفيس.

وقد بدأ القفطي كتابه ، كما فعل غيره ممن الف في هذا الباب ، بمقدمة في مبدإ علم النحو ، ردّد فيها الاخبار التي تعود المؤرخون ترديدها في هذا الصدد . وقد حمله ذلك على أن يقدم ترجمتي علي بن أبي طالب وأبي الاسود الدؤلي على تراجم غيرهما ، لما لهما من صلة بموضوع نشأة علم العربية .

والكتاب بمجموعه شاهد على حسن إلمام المؤلف بما صنف قبله في التراجم ، وعلى شديد اتصاله بالاوساط العلمية والادبية في عصره . وفيه معلومات كثيرة انفرد بها لفقدان الأصول التي استقاها منها .

أما من حيث ترتيب تراجم الكتاب فإن الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ، محقق الكتاب ، يأخذ عليه عدم الدقة في ترتيبه ، « فهو يذكر مثلاً **ابراهيم بن عبدالله** قبل **ابراهيم بن اسحاق** ، و **الخليل بن احمد** قبل **خلف بن محرز** . ومثل هذا كثير . وقد صرح المؤلف بأن الترتيب لم يكن من عمله بل من عمل الناسخ . » ويأخذ عليه محققه ايضاً « أنه كرر بعض التراجم بأسماء مختلفة . » ولكن الكتاب يبقى على الرغم

من هذه الشوائب مثلاً جيلاً من أمثلة تلك الكتب الخصبة الجامعة التي زودنا بها علماء القرنين السابع والثامن .

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي :[١]

عكف السيوطي ، وهو في العشرين من عمره ، على تأليف كتاب يجمع أخبار النحويين ، بعد أن رأى أن الكتب التي صنفت من قبل في هذا الموضوع — على كثرتها — غير وافية بالغرض . وإن القارىء لكتاب البغية ليدهش حقاً لذلك الثبت الطويل الذي صدّر به السيوطي كتابه وذكر فيه أسماء مصادره بالتفصيل . فهو لم يترك كتاباً من كتب التراجم والأدب والاخبار إلا وقف عليه . ويقول السيوطي في مقدمة كتابه بعد أن يعدّد مصادره الكثيره : « فجمعت كلّ ماتضمنته هذه الكتب المذكورة من ترجمة نحوي ، طالت أو قصرت ، خفيت أخباره أو اشتهرت ، وأوردت من فوائدهم وأخبارهم ومناظراتهم وأشعارهم ومروياتهم ومفرداتهم مالا يجمع في كتاب ، بحيث بلغت

---

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي . كان من اوسع علماء عصره ثقافة واخصبهم آثاراً . صنف ما يزيد على ٥٠٠ كتاب في القرآن والحديث واللغة والنحو والادب وغير ذلك من فروع الثقافة الاسلامية ، وتوفي في القاهرة سنة ٩١١ هـ وهو لم يتجاوز الثالثة والستين من عمره . اما كتابه (بغية الوعاة) فقد طبع بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ هـ .

المسودة سبع مجلدات . فلما حللت بمكة المشرفة سنة تسع وتسعين[1] وقفت عليها صديقنا الحافظ نجم الدين بن فهد جزاه تعالى أحسن الجزاء، وحباه أبلغ الحباء ، فأشار عليّ بأن ألخص منها طبقات في مجلدة تحتوي على المهم من التراجم ، وتجري مجرى ما ألفه الناس من المعاجم . فحمدت رأيه ، وشكرت لذلك سعيه ، ولخصت منها اللباب في هذا الكتاب . »

فالكتاب الذي بين أيدينا اليوم هو إذاً خلاصة لكتاب واسع جداً في موضوعه . وهذا مايفسر لنا اختصار التراجم فيه واقتصارها في أغلب الأحيان على ذكر اسم العالم ، وتاريخ وفاته ، وأسماء أساتذته وتلامذته ، وعناوين مصنفاته . وقد يورد المؤلف أحياناً نتفاً من أخبار من يترجم لهم وآرائهم المشهورة ، ولكنه في كل ذلك يلزم جانب الايجاز الشديد .

وقد اتبع السيوطي في ترتيب تراجم كتابه المنهج المعجمي أيضاً فرتبها على الحروف ، إلا أنه بدأ بذكر المحمدين والاحمدين قبل البدء بحرف الهمزة ، إجلالاً للرسول العربي الكريم المسمى بهذين الاسمين. والكتاب بعد ملخص ومتمم لجميع ما ألف قبله في تراجم اللغويين

---

(١) اي سنة ٨٩٩ هـ . وذلك بعد ثلاثين سنة من شروعه بتأليف الكتاب ، إذ ان السيوطي يذكر في مقدمة كتابه انه جرّد همته لجمع مادة كتابه سنة ٨٦٨ هـ .

والنحاة . ولا بد للباحث من الاعتماد عليه في مراجعاته ، وخاصة إذا لم يعثر على مراده في الكتب الاخرى التي ذكرناها قبله .

م — الكتب المصنفة في تراجم الادباء عامة

معجم الأدباء لياقوت :[1]

أشار ياقوت في مقدمة كتابه إلى أولئك الذين نظمهم في سلك الأدباء وعني بذكر تراجمهم في كتابه فقال : « وجمعت في هذا الكتاب

---

(١) عنوان الكتاب الأصلي : **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب** . ولكنه اشتهر بمعجم الادباء اختصاراً ، وليكون هذا الاسم مناظراً لاسم كتاب آخر مشهور للمؤلف نفسه هو : معجم البلدان ويظهر ان هذه التسمية من وضع المؤلف نفسه ايضاً ، فقد ذكره بهذا الاسم في (معجم البلدان) ج ١ ص ١٦٩ . ومؤلف هذين الكتابين هو ابو عبد الله الرومي الحموي ، من اعلام التأليف في القرنين السادس والسابع . اصله من الروم ، وكان مولى لتاجر بغدادي اسمه (عسكر الحموي) ، ومن هنا لقبه الثاني (الحموي) . وقد رباه مولاه وثقفه ثقافة حسنة وشغله بالاسفار في متاجره . فأفاد ياقوت كثيراً من هذه الاسفار . وبعد موت سيده ثابر بنفسه على الترحّل والدراسة والتأليف إلى ان توفي في حلب سنة ٦٢٦ هـ وهو في الخمسين من عمره . وقد طبع (إرشاد الأريب) لأول مرة في اوروبا في ٧ مجلدات باشراف المستشرق الانجليزي مرجليوث بين سنتي ١٩٠٧ و ١٩٢٦ م . وطبع الكتاب ايضاً في مصر في ٢٠ جزءاً بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٨ باشراف الدكتور احمد فريد الرفعي (مطبوعات دار المأمون) .

ماوقع إلي من أخبار النحويين واللغويين ، والنسابين ، والقرّاء المشهورين والاخباريين ، والمؤرخين ، والورّاقين المعروفين ، والكتاب المشهورين واصحاب الرسائل المدونة ، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكل من صنف في الأدب تصنيفاً ، أو جمع في فنه تأليفاً . مع إيثار الاختصار والإعجاز ، في نهاية الإيجاز . ولم آل جهداً في إثبات الوفيات ، وتبيين المواليد والأوقات ، وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم ، والاخبار بأنسابهم وشيء من أشعارهم . فأما من لقيته أو لقيت من لقيه فأورد لك من أخباره وحقائق أموره مالا أترك لك بعده تشوفاً إلى شيء من خبره ما أدت الاستطاعة إليه ، ووقفني النقل عليه في ترداي إلى البلاد ومخالطتي العباد . »[1] .

ومن المؤسف أن هذا الكتاب لم يتضمن تراجم الشعراء . اللهم إلا من عرف إلى جانب الشعر بالتصنيف والتأليف . كأبي العلاء المعرّي . والبحتري . وابن عبد ربه الأندلسي وغيرهم . أما الشعراء الذين لم يعرفوا إلا بقول الشعر . ولم يتركوا من الآثار سوى دواوينهم ، فلم يأت ياقوت في **معجم الادباء** إلا على ذكر عدد قليل منهم . ويعود السبب في ذلك الى أن المؤلف قد صنف كتاباً مستقلاً **في اخبار الشعراء المتأخرين والقدماء** ذكر فيه «كل من غلب عليه الشعر ، فدون ديوانه ،

(١) معجم الادباء ج ١ ، ص ٤٨ — ٤٩

وشاع بذلك ذكره وشانه ، ولم يشتهر برواية الكتب وتأليفها والآداب وتصنيفها . »[١] ولكن هذا الكتاب قدفقد وبقي **معجم الادباء** خلواً من أخبار الشعراء .

وقد رتب ياقوت كتابه على حروف المعجم أيضاً . وكان شديد التدقيق في هذا الترتيب يراعيه في تتابع التراجم ، كما يراعيه في ترتيب أحرف اسم الأديب واسم أبيه . وإذا اتفقت أسماء عدة رجال وأسماء آبائهم قدم من تقدمت وفاته . وكان ياقوت دقيقاً أيضاً في ذكر مصادره وصرح بذلك في مقدمة كتابه فقال : « وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء المعول في هذا الشأن عليهم ، والمرجوع في صحة النقل اليهم »[٢] .

ويغلب على الظن أن ياقوتاً ألف كتابه في أواخر حياته وأنه لم يتح له تبييضه والفراغ منه . فمقدمة الكتاب تنبيء بأن المؤلف كتبها والكتاب ما يزال مسودة لم تهذب وتنقح وتبيض ، وأنه كان أقسم ألا يسمح بإعارة الكتاب مادام في مسودته ، ولعله أبقى كتابه على هذا الشكل كي يبر بقسمه ويمنع الكتاب عن طالبيه . فقد كان شديد الحرص عليه لا يسمح بنسخه ، لانه كان منه — على حد قوله —

---

(١) معجم الادباء ج ١ ، ص ٥٠

(٢) معجم الادباء ج ١ ، ص ٤٩ — ٥٠

بمنزلة الروح في جسد الجبان[١] . وقد وعد ياقوت في مقدمة كتابه أن يفرد في آخر كل حرف فصلاً يذكر فيه من اشتهر بلقبه من الأدباء على ذلك الحرف ، من غير أن يورد شيئاً من أخباره فيه ، وقصده من ذلك أن يدل على اسم صاحب اللقب واسم أبيه ليطلبه القارىء في موضعه[٢] . ولكننا لا نجد في الكتاب شيئاً من هذا . فإذا أضفنا الى ما تقدم أن النقص يعتور الكتاب في مواضع متعددة جاز لنا أن نفترض ما قدمناه من أن المؤلف لم يتح له أن يتم كتابه نهائياً وأن الموت قد عاجله عن إتمامه ، إذ أنه مات ولم يتجاوز الخمسين من سنيه[٣] .

والكتاب ، بعد ، اضخم معجم نملكه للأدباء على اختلاف اختصاصهم فهو يلخص معظم الكتب التي ذكرناها في هذا الفصل ويتمها ويتوجها . ولذلك كان أول المراجع في موضوعه وأكثرها تداولاً .

---

(١) معجم الادباء : ج ١ ، ص ٥٨

(٢) معجم الادباء : ج ١ ، ص ٨١

(٣) ومما يؤيد هذا الفرض ان النسخة المطبوعة التي بين ايدينا من (معجم الادباء) قد ورد فيها تراجم لبعض الشعراء ممن لا تنطبق عليهم الشروط التي وضعها ياقوت لمن يترجم لهم في كتابه هذا . وللباحثين تعليلات لذلك ، منها ان النسخة التي اعتمد عليها في الطبع ربما كانت مزيجاً من هذا الكتاب و كتاب آخر للمؤلف نفسه باسم (معجم الشعراء) . ولا يبعد ان يكون سبب ذلك ان المؤلف لم يفرغ لتنقيح كتابه بعد ان جمع مادته ، ثم اخذ بعد وفاته وبقي كما كان في مسودته .

هذه أشهر الكتب المصنفة في تراجم الادباء . وهي كما رأينا مختلفة من حيث الموضوع ومتباينة من حيث الخطة . وإذا كان هنالك مايؤخذ على هذه التراجم فهو تشتت المعلومات فيها وعدم اطرادها على نسقٍ صحيح ، إذ المستحسن في تدوين التراجم أن تطرد فيها الاخبار على نهج منطقي فتتناول حياة الشخص المترجم له وتتابع آثاره في طفولته حتى وفاته ، وهذا مالانجد له أثراً في تراجم أدبائنا كما حفظتها لنا هذه الكتب . كما أنه مما يؤخذ على هذه الكتب ، ولاسيما المتأخرة منها ، ضعف الاصالة فيها أو فقدانها تماماً ، إذ أنها في كثير من الاحيان يكرر بعضها بعضاً .

ولكن مهما يكن من خطر هذه المآخذ فإن هذه الكتب تبقى من أهم مراجعنا ومصادرنا في الدراسات الادبية .

❀❀❀

ونختم هنا هذا الفصل . وقد كان بودنا أن نشير قبل ختامه إلى كتاب التراجم المعروف **وفيات الاعيان** لمؤلفه المؤرخ المشهور ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ ﻫ . وأن نشير أيضاً إلى كتب التراجم الاخرى التي ألفت تتمة أو توسعةً لهذا الكتاب : مثل كتاب **فوات الوفيات** لمحمد بن شاكر الكتبي المتوفى نحو سنة ٧٦٤ ﻫ ، وكتاب **الوافي بالوفيات** لصلاح الدين الصفدي المتوفى في السنة ذاتها ، وهي كتب يكثر

الرجوع اليها للبحث فيها عن تراجم الادباء عامة لأنها تشتمل على عدد وفير منها . ولكننا آثرنا ذكر هذه الكتب في الباب الثالث من هذا الكتاب ، لانها مصنفات في التراجم عامة لا في تراجم الادباء ؛ فهي من هذه الناحية أشد صلة بكتب التاريخ .

★★★

ينتهي هنا الجزء الاول من هذا الكتاب

ويليه الجزء الثاني

وأوله :

الباب الثالث : التأليف في التاريخ

مصادر البحث في هذا الجزء

إن مصادر البحث الرئيسية في هـذا الجزء هي الكتب التي سيرد ذكرها في فهرس أسماء الكتب ، مضافاً اليها الكتب التالية :

الاعلام لخير الدين الزركلي . الطبعة الاولى سنة ١٩٢٧ م .

تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (بالالمانية) .

تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان . الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٦ م.

دائرة المعارف الاسلامية (النسخة الفرنسية) .

ضحى الاسلام لاحمد أمين. ثلاثة أجزاء. الطبعة الاولى سنة١٩٣٣-١٩٣٦

ظهر الاسلام لاحمد أمين. ثلاثة اجزاء . الطبعة الاولى سنة ١٩٤٥-١٩٥٣

فجر الاسلام لاحمد أمين . جزء واحد . الطبعة الثانية سنة ١٩٣٣

الفهرست ، لابن النديم . طبعة المكتبة التجارية بمصر سنة ١٣٤٨ ه .

كشف الظنون لحاجي خليفة ؛ الطبعة التركية سنة ١٩٤١ .

معجم المطبوعات العربية ، لسركيس .

المزهر ، للسيوطي ، طبعة بولاق سنة ١٢٨٢ ه .

النقد الشعري عند العرب من نشأته حتى نهاية القرن الهجري الخامس ، للمؤلف (بالفرنسية) .

فهرس الأعلام

ذكرنا في هذا الفهرس الأعلام التي وردت تراجم أصحابها في حواشي هذا الجزء، مرتبةً على حروف المعجم، وقد راعينا العلم الذي اشتهر به الشخص سواء كان اسماً أو كنية أو لقباً :

فهرس اسماء الكتب

ذكرنا في هذا الجدول أسماء الكتب التي ورد ذكرها في هذا الجزء مرتبة على حروف المعجم . وأشرنا بنجمة (*) الى الكتب التي كانت موضع دراسة أو حديث خاص في هذا الكتاب :

فهرس مواد الجزء الاول

الصفحة

❀❀❀